روما فيلليني

الفن السابع

تأليف: فيديريكو فيلليني
تقديم: برناردينو زابوني
ترجمة: نبيل الدبس



روما

فيلليني

الفن السابع | ٢٦٨ |

رئيس التحرير: محمد الأحمد

أمين التحرير : بندر عبد الحميد

رومـا

فيلليـني

تأليف: فيديريكيو فيلليـني
تقديم: برناردينو زابوني
تـرجمة: نبيل الدبس

منشورات وزارة الثقافة - المؤسسة العامة للسينما
فـي الجمهورية العربية السورية - دمشق ٢٠١٩م

العنوان الأصلي للكتاب:

ROMA

de

FEDERICO FELLINI

Presentation de Bernardino Zapponi

الطَّبعة الأُوْلى ١٩٩١م

الطَّبعة الثَّانية ٢٠١٩م

روما فيلليني/ تأليف فيديريكيو فيلليني؛ تقديم برناردينو زابوني؛ ترجمة نبيل الدبس.- ط٢.- دمشق: المؤسسة العامة للسينما، ٢٠١٩م.- ١٧٦ص؛ ٢٥ سم. – (الفن السابع؛ ٢٦٨) صدرت الطبعة الأولى ١٩٩١.

١- ٧٩١.٤٣ ف ي ل ر   ٢- العنـــــوان

٣- فيلليني   ٤- الدبس   ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

القسم الأول

تقديم بقلم

برناردينو زابوني

ذكريات – يوميات- أفكار حول الفيلم

مُقَدِّمَة

«روما عبر موشور رؤية فيلليني الذي يعيد تشكيلها...

متناثرة، مشوهة. هذه المدينة التي يحب ويخشى، التي يحترم ويسخّف، المدينة التي تسحره وتكتم أنفاسه. روما الهاربة، حاضرة العالم المعاصر، وعاصمة البابوية، تهب نفسها جسداً وروحاً لفيلليني، تنقاد لعبقريته ونزعاته، لشراسته وعظمته، تتجلى وتتشوه...

إثر مشاهدة هذا الفيلم الباروكي العاصف، المبعثر والمتماسك، المبني بمهارة فائقة، هذا الفيلم الذي لا يمكن مقارنته بأي فيلم آخر؛ إذ يبدو مصنوعاً من نسيج مختلف، من معدن مختلف، كيف لنا أن ننكر أن فيديريكو فيلليني، من بين جمهرة السينمائيين البارعين، يظل أحد النادرين الذين يستحقون بحق اسم المبدع».

جان دو بارو نسيللي

(جريدة اللوموند)

فيلليني يهتف لي من منزله في منطقة فريجين. المكالمة الهاتفية تتابع وقفاتها المنتظمة تحت تأثير دوي الطائرات التي تبدأ - فوق فيللافيلليني مناورة هبوطها نحو مطار فيوميتشينو. هكذا، فجأة، ينقطع صوت فيلليني الوداع: «عفواً لحظة، هنالك طائرة تمر». وفي سماعة الهاتف يتناهى إلى سمعي ضجيج متوعد يصم الآذان ويذكرني بالغارات الجوية وإنذاراتها. كم تتناقص أجواء الحرب والطيران هذه مع شخصية فيلليني، داعية السلام المعروف، الذي يمقت كل ما يذكّر برائحة الرداء العسكري والحرب.

الاتصال الهاتفي يستمر على الرغم من تقطعاته المنتظمة. حديثنا حديث عمل: مشاريع جديدة. ما إن انتهى فيلم «مهرجو السيرك» حتى يعبر فيلليني، الذي لا يعرف الراحة إلا مصحوبة بالملل، عن رغبته في بدء عمل آخر. لا تنقصنا الأفكار، فهي كثيرة، مواضيع مكتوبة. وحتى أجزاء من سيناريوهات جاهزة. لكن يبدو أن فكرة فيلم عن روما، يحمل ببساطة، اسم «روما»، هي الأكثر جاذبية في الوقت الراهن.

كنا نلتقي لنناقش الميزانسين في أماكن تتغير باستمرار تبعاً لتغير الفصول، ووسائل الراحة، والمؤثرات المؤاتية لبعض الأجواء. لقاءاتنا كانت تتم غالباً على فترات يفصلها أسبوعان أو ثلاثة. هنالك فترة فندق البلاتزا، منزل فيلليني، وفترة أوستي. التحضير للفيلم الجديد بدأ في منزلي. كان فيلليني يصل كل يوم نحو الثالثة بعد الظهر. فور وصوله، يطلب كأساً من الماء أو فنجاناً من القهوة المركّزة، ينتقي مكاناً مريحاً قرب الهاتف، ويتلفت حوله، يستطلع المكان، يطرح أسئلة تتعلق بالبيت والمهام البيتية. كان يحب أن يجد نفس الأشياء، نفس الجو العائلي. وإذا تناهى إلى سمعه صوت مذياع بعيد يطلب إيقافه فوراً.

أذكر في واحدة من روايات سيمنون، يقوم المفتش ميغريه، أثناء تحقيقه في قضية في أحد الأرياف، باسترجاع عاداته اليومية: كان يجلس دوماً في نفس المقهى، ويطلب نفس النبيذ الأبيض، وفي ساعة معينة كان يزور نفس الشخص لتناول كأس الأبير يتيف... إلخ... يقول سيمنون: «كان لميغريه عاداته». إلى جانب حبه للعادات، كان فيلليني، مثله مثل ميغريه، يحب الناس والأشياء، يحب تذوق طعام الآخرين، ناهيك عن حبه للأجواء والنفسيات...

كل فيلم من أفلامه هو في الواقع تحقيق لا يختلف كثيراً، في وسائله، كما سنرى بعد قليل، عن التحقيق الجنائي. كما هي حال ميغريه، يحب فيلليني الزيارات اللا مرتقبة، الفنادق في غير مواسمها، تفصيلات جزئيات الحياة اليومية في المدن... يحب تلك الإنسانية الممزقة، التي لا تخلو من الطيش؛ تلك الإنسانية المطعونة، والمتمردة الهائجة. يحب «الوحشة». ما هي الوحشة؟ الوحشة ليست بالقبيح، ولا هي المبتذل الباهت، ولا حتى العتيق الذي بطل استخدامه؛ إنها شيء ما متوقف، شيء ظل هامشياً. التاريخ والعقليات سلكت اتجاهاً ما؛ وحدها الوحشة أقامت، انزلقت نحو بعد خاص بها حيث تسمّرت في مكانها- بعدٍ ثابت يثير الدهشة. بعض ساحات أوسّي أو لاتينا، بعض النزل التي هجرها الزبائن، مقاعد صلبة ولوحات عتيقة، أضواء باهتة وعمارات بلا هوية، شوارع زائدة الاتساع وكنائس تفتقد التناسق...

هذا هو حصاد الوحشة، تلك الآلة الميتافيزيقية الغامضة التي تلمس بأصابع خفية، هنا وهناك، هامسة: «هذا لي». الشيء الملموس يتوقف كلياً، لا يشيخ لكنه يفقد هويته، يغدو شيئاً ميتاً، يبهرك مثل لقيا عُثر عليها أثناء تنقيب أثري وعجز الجميع عن تحديد هويتها. عندما نتوقف عن العمل في المنزل كنا ننطلق، أنا وفيديريكو، باحثين عن الوحشة. في الشتاء غالباً ما كنا ننسل نحو أوسّي، حيث تكون النزل الفاشية الفخمة مهجورة فارغة تلفها ريح مالحة. البحر هناك معتم حتى في الصيف، أما في الشتاء فهو أسود حقاً. كنا نتوقف عند أحد الأكشاك على الشاطئ، زبائن منفردين. أو نتناول عشاءنا في صالة بالغة

الاتساع. الجو مثالي هناك، ذلك أن روما الغائبة تحضرنا بموضوعية أكثر، تبدو أكثر قابلية للتناول.

- أريد تصوير لقطات من الطائرة المروحية... أريد أن أرى من أعلى كيف تتشكل الغيوم فوق روما، أن ألتقط تلك الكتل الضخمة الملونة وهي تتجمع، ثم تتمزق وتتباعد...

- وأيضاً:

- البوننتينو، تلك الريح الخفيفة الشهيرة، أتساءل كيف تولد؟.

- من أين تنطلق؟ اسمع، أتمنى أن أقطفها لحظة ولادتها وأتبعها إلى روما، ألتقط الناس الذين يحسونها تداعب وجوههم، بينما هي تعبث في شتى الأماكن، في المقهى، في السرير، في الشارع...

هاتان كانتا الفكرتين الأوليتين اللتين اقترحهما فيلليني وأعطتا مباشرة أفقاً محدداً وواضحاً لهذا الفيلم الوثائقي، الذي لن يكون وثائقياً حقاً، ذلك أن فيلليني يكره الواقعي، بل وثائقياً- رمزاً ينقل جوهر وخلاصة روما، مثلما نقل كافكا جوهر أمريكا، وريمون روسّيل[١] جوهر إفريقيا... واعتمدنا هاتين الفكرتين تاركين كل الأفكار التي لا تصب في هذا الواقع الخرافي. لقد قام بناء الفيلم بأكمله، لبنة لبنة، على هاتين الدعامتين الأساستين.

إلا أن فيلليني لم يصور هذين المشهدين أبداً. في النهاية بات واضحاً أنهما أصبحتا دون فائدة. لقد أوحتا بكل شيء، أعطتا ثمارهما، وأصبح بإمكاننا الآن أن نرميهما دون ندم مثلما تُرمى قشرة البيض.

---

(١) ر. روسل كاتب فرنسي (١٨٧٧-١٩٣٣) امتازت مؤلفاته بخيال واسع وغني، وجعلت منه رائداً للسيريالية والرواية الحديثة. أحد أهم أعماله كتابه «انطباعات من إفريقيا» الذي نشر عام ١٩١٠م. - المترجم-

كنا نسجّل ملاحظات متفرقة. ينبغي أن ترخي العنان للذكريات، لتداعيات الأفكار، للناس المعروفين. عليك أن تتحدث عن روما دون توقف، أو أن تمعن التفكير بصمت. كم كان ممتعاً ذلك كله، فالعمل مع فيلليني لا يُعد عملاً، إذ إن فيديريكو يحيط كل شيء بجو من الصداقة الحميمة. كنا نروي قصصاً وأحداثاً عشناها، ونتحدث عن أناس من الماضي والحاضر. أحداث الفيلم تحتل في الحقيقة فترة تمتد من روما ما قبل الحرب وحتى روما الحالية، في خط تصاعدي بعيد تماماً عن أي تقييد.

عند ما كنا نسجل ملاحظاتنا كنا نختار، غالباً من غير عمد، الأفكار التي تصب، أكثر من غيرها، في الفكرتين الأوليتين. الفيلم هو رصد، عن بعد، لإنسانية مذهلة، تعيش باستمرار تقلبات سريعة ومفاجئة- تلك الغيوم التي ترقبها من الطائرة المروحية. إنسانية مرعبة، لكن فيلليني لا يذهب بعيداً، بل يكتفي بملامستها برفق كما الريح. ينبغي رؤية روما- النجمة من مسافة أقرب. أحياناً كنا نعلق حواراتنا وننطلق بحثاً عن ألف وجه لروما، وهذا ما يقودنا إلى اكتشافات ومغامرات مثيرة.

القصر العدلي في روما، ذلك الصرح الأمبرتيني الضخم، هيكل القانون، محراب العدالة، بلاط الحقوق الفرعوني، أصبح غير قابل للاستخدام منذ بضعة شهور. آلاف الأطنان من الأحجار الجيرية، تلك الأعمدة التي تتحدى الزمن، البوابات الحديدية الكافية لسجن آلاف العبيد، تماثيل فقهاء روما القديمة التي يصل ارتفاعها إلى /١٢/ متراً، البحيرات الواسعة كالمسابح... تبين أنها هشة وآيلة للسقوط.

كان من العدل والمنطق والحتمية التاريخية أن ينتهي هذا المعبد الوهمي للعدل المشكوك بعدالته إلى هذا المصير (كيف يمكن لصرح كهذا أن يكون رمزاً للعدالة وهو على هذه الدرجة من عدم التناسق، ابتداء من منظوره المعماري وانتهاء بالمواد المستخدمة في بنائه). ها هو الآن يغرق وسط أرض فقراء، ويضيع وراء الممنوعات البيروقراطية.

فيلليني هو الذي لفت أنظاري إلى أن ساحة كافور بمجملها تملك طابعاً شرقياً: معبد القصر العدلي، كنيسة فالديز التي تشبه الجامع، أشجار النخيل... فعلاً لم أنتبه إلى هذا، يخال المرء أنه في بانكوك (خصوصاً أنا الذي لم أضع قدمي هناك). غريب هذا الذوق المستورد لروما الأمبرتية، هذا العطش للنخيل، والتكاثر المعماري للنوع النباتي، وازدهار حدائق الحيوانات والمواخير الصينية. إنه انعكاس لعصر بييرلوتي[١]، ودواوين علم الحيوان الشعبية. كاميل فلاماريون[٢] و«بستان الآلام». فلندخل القصر العدلي.

سلالم هائلة تقود إلى سلالم أخرى، ممرات أشبه بشوارع دون نهاية، وفوق الأبواب الضخمة ترى لوحات ذات تقطيعات تذكر باطارات سيم بينيللي S. BENELLL المزركشة، تحمل كتابات مبهمة: **مكتب المياه، محكمة الغابات.** في الداخل ترى جدراناً تزدحم، من الأرض وحتى السقف الذي يستحيل بلوغه، بالرفوف الغاصة بالأوراق؛ وخلف مكاتبهم، جلس رجال صغار القامة يسلّكون أنوفهم، يثرثون في سماعة الهاتف، يتنقلون جيئة وذهاباً في حركة حيوانية. كل ذلك سيتم نقله؛ لن يظل منه، على حد تعبير الإنجيل، حجر على حجر. لا بد أن تتبادر إلى ذهنك صورة قطيع القردة، تنط وتزعق وهي تقتحم الهياكل المهجورة في **«كتاب المستنقعات»!**

نتابع السير نحو الجزء الذي أخلي تماماً، وقد تمت حمايته بالدعامات: «خطر الانهيار». نقترب أكثر لمشاهدة الباحات الواسعة؛ حولها مصابيح زجاجية متسخة، وآثار التراب المتساقط من الجدران المتآكلة، وأحجار منهارة متناثرة. الحجر الذي يعلو كل باب يزن وحده عشرة أطنان.

---

(١) ب. لوتي ضابط بحرية وكاتب فرنسي (١٨٥٠-١٩٢٣) روائي انطباعي، شغف بالطبيعة والحضارات الغربية. من مؤلفاته: زواج لوتي، صيادا يسلاندا، مدام أقحوانة. كان من أعضاء الأكاديمية الفرنسية.

(٢) عالم فلك فرنسي (١٨٤٢-١٩٢٥) له العديد من المؤلفات التبسيطية لعلم الفلك.

نحث الخطا بحثاً عمن صلاحية منحنا موافقة التصوير في هذا الجو الملوث. ويقودنا البحث إلى فسحة عالية تملك إطلالة ساحرة على المدينة. إنه سطح القصر العدلي. منه نرى قلعة سانتا نجيلو، سان- بيير، وكل سطوح المدينة، مصقولة كحصاة ملساء. وهناك، بعد معاناة عقيمة فرضتها علينا كل المكاتب والمصاعد، نعثر على ركن يحمل إلينا ذلك البعد الروماني الودّي والحار.- هنا كان الحجّاب ينامون ويعدّون طعامهم. ثمة جو يوحي بالعابر، بالمهجور وبأجواء الضواحي ، تحس رائحة القنّبيط الشتوي الزكية. فيديريكو يتذكر حكاية طريفة تثير الاهتمام، يرويها لي وهو يقترب من حاجز السطح: يحكى أن عدداً هائلاً من الجرذان الضخمة غزت القصر العدلي، جاءت من الأقبية، والتهمت كل الأوراق والرفوف. قرروا محاربتها بجيش من القطط التي كانت أصغر منها حجماً. تم اللجوء عندئذ إلى حديقة الحيوان، أطلقت منها كل الفهود في أقبية القصر، وهكذا اختفت الجرذان، (هذا الفصل فكرنا فيه طويلاً، لكن لم يتم تصويره).

أخيراً، وبعد جيئة وذهاب، وأخذ ورد، اهتدينا إلى المكتب الذي يملك وحده حق منح الموافقة على زيارة الجزء الممنوع. كان ممثل السلطة يجلس خلف مكتب في قاعة مثقلة بالمرمر والبرونز، وبالرغم من الحجج المقنعة التي قدمها فيلليني لم يعطنا الموافقة. لا فائدة من الإلحاح. السلطة تمثل تلك البيروقراطية العقيمة التي شيدت يوماً هذا القصر القبيح، وتركته يتصدع، والآن تمنع استخدامه.

* * *

الميترو الجديد لايني منذ سنوات يثقب الأعماق كحيوان غريب، مثيراً هنا وهناك اهتزازات أرضية، تشققات في المباني، تدخلات رجال المطافئ، قرارات السلطات القضائية، مظاهرات عدائية من قبل السكان. لكنه لا يفلح في بلوغ الضوء وملاقاة المحطات القائمة. ربما بقي طويلاً على هذه الحال، آلاف

العقبات تضعها في وجهه مدينة تعادي وسائل النقل الحديثة (حداثة متأخرة مئة عام). هذا الميثرو المنهك، المختبئ، المتوعد كجرذان المجارير، قررنا رؤيته عن قرب. انطلقنا من ورشة حي سان جيوفاني. قدم المهندسون لكل منا رداء واقياً أصفر اللون، وحذاء ضخماً وخوذة. وفي عربات القطار الكهربائي المكشوفة بدأنا توغلنا البطيء داخل نفق الخوف، وسط رشح المياه والطين والهدير المخنوق للحفريات البعيدة.

كان فيلليني يتجنب النظر إليَّ لعلمه أنني أعاني مرض الخوف من الأماكن المغلقة. هو أيضاً كان قلقاً شاحب اللون بخوذته الصغيرة وردائه الواقي المضحك اللذين يضفيان عليه هيئة الكرنفال. هذا ما كان يبعث فيَّ الطمأنينة. فحضور فيلليني يثير لدي، في كل مرة، انطباعاً بالمزحة، باللامأساوية، بالسخرية الودودة. كان دليلنا، وهو كبير المهندسين، رجلاً صموتاً يضع نظارات أشبه بنظارات أستاذ كبير، يتخذ هيئة غامضة كتومة، هيئة الخبير الذي يعرف ولكنه لا يستطيع الكلام. الأفضل ألا أنظر إلى الخلف، فقد كانت بقعة الضوء تتلاشى وتختفي شيئاً فشيئاً تاركة خلفها إحساساً بالقنوط. الرحلة طويلة. أحياناً نتوقف ونهبط في الوحل، نجتاز الرواق الموازي ونتأمل الكتل الإسمنتية والدعامات والسكك الحديدية والمعدات الكهربائية والمصابيح المهتزة التي تهدد بالانطفاء كشموع في مهب الريح، وكل ذلك وسط ضجيج حفريات عمال المناجم التي تصم الآذان.

كيلومتر من التجوال في جوف الأرض. ها نحن أخيراً ندرك النهاية. النفق يتوقف، وهناك نرى الأسنان المتشبثة بالجدار الترابي. إنها الحفارة (الخلد)، تجثم ساكنة وقد أوقفها آخر السلسلة الطويلة من قرارات بلدية روما.

الخلد (وهو الاسم الشائع الذي كان يطلق على الحفارة) آلة جبارة تشبه منشاراً ضخماً، أو على الأصح، صليباً معقوفاً من الفولاذ. عندما تعمل ترمي شفراتها شرائح هائلة من الطين، تحملها العربات نحو المخرج. بمقدورها أن تتقدم

بسرعة كبيرة صل إلى عدة أمتار في اليوم. ولا تتوقف حتى الليل. الآن ها هي جامدة يكللها العار، حيوان نبيل ذبحته البيروقراطية. نصعد فوق الآلة ونتلمس شفراتها الساكنة. المهندس يأخذه الحماس وهو يشرح لنا عملها. إنه يحب الخلد. لقد اتخذ التقنية مذهباً طواطمه الآلات، يفسر علاماته كما الكاهن الكبير، يعتبرها آلهة ظافرة. لكن، في الدولة الحبرية، كان عليه أن يخضع لسطوة آلهة أخرى، آلهة غيورة حاقدة عدوة للآلات المنشقة، للتقدم الملحد. الخمول البابوي أوقف الخلد.

يصارحني فيلليني فيما بعد:

- ينبغي إعادة بنائه بالكامل في تشينيشيتا[1]

- وما ذاك؟

- الميترو. هنا لا يمكننا ضبط الإضاءة.

الإضاءة تلعب دوراً أساسياً في أسلوبية فيلليني.

فيلليني، مثله مثل إبليس، لا يقبل العالم الذي خلقه الله. يريد صياغة عالم خاص وفق تصوره هو. إنه لا يقبل الطبيعة ولا يقبل إنجازات البشر. كبرياؤه، وهي إثم من عمل الشيطان، تدفعه إلى إعادة صياغة كل شيء. لقد سبق له، في مسرح العرائس الذي كان يديره، أن صنع مدناً وغابات وهضاباً. نزعة طفولية للتملك، إنها عرائسه هو. أفلام فيلليني ما هي إلا عرائسه. وهذه النزعة التملكية لها طعم طفولي من الحدة بحيث كان مساعدوه يغفرونها له بكل طيبة خاطر. هكذا ولدت، في تشينيشيتا، روما فيلليني المصطنعة التي تتحدى روما الواقعية والبابوية. وعملية الخلق هذه لها صفة عبثية وشيطانية. ذلك أن روما فيلليني، المضاءة بهالات أنوار جهنمية، تنعكس في مرآة أشبه بمرايا الساحرات. تذكر بجحيم دانتي، حيث السماء والهواء غائبان، والمساحات

(١) مدينة السينما في روما.

ضيقة، المنظور المعماري مصطنع زائف، الطرق لا تقود إلى أي مكان، البيوت أبراج وهمية جاهزة للتفكيك. غرائبية فيلمية، بعد خيالي: إنها حياة مدينة سماوية تخربش مسودتها الأولية، تقارب، تذكّر، لكنها ليست، هي.

الميترو، الذي أعيد بناؤه، بدا في النهاية أعمق أثراً من الحقيقي. الممثلون بخوذاتهم، وأحذيتهم عالية الساق، ينهمكون في عملهم في جو خانق وسط الطين الصمغي. الآلات الشرهة بدت أكتر ضخامة أكثر شراسة منها في الواقع.

* * *

للحصول على بعض المعلومات لا يتوانى فيلليني عن الاتصال بأحد محبي روما القدامى. عضو محترم في تلك المجموعة، النخبوية بعض الشيء، من الباحثين المخلصين للاوربس(URBS- الاتحاد الوطني للفصائل الاشتراكية)، التي لا تني تفرّخ الدراسات والكتب، والمحاضرات بعصبية لا تخلو من الرجعية.

«أنا فيلليني»... يتمتم في الهاتف، وهذه الجملة تفتح أمامه كل الأبواب. عندما يواجه فيلليني إحدى العقبات يلجأ إلى وسائل متطرفة: يبعث بأحد «العنيدين» ليتوسل إلى الشخص القادر على منح رخصة التصوير في متحف،أو فيلا، أو أي مكان آخر محرّم. «إذا رفضتم منحي رخصة التصوير سيطردني فيلليني من العمل، عندي خمسة أطفال... أنتم لا تعرفون فيلليني، إنه لا يمزح مطلقاً...».

لكن هذه المرة لم تكن هنالك مشكلة. الأستاذ العجوز وافق على استقبالنا. ها نحن في الفيللا الصغيرة في أفانتين. هضبة كئيبة. الشقة صامتة رهبانية. الممرات تغص بالكتب واللوحات. الوقت يقارب الظهيرة، والأستاذ مريض يجلس في مقعده. من المطبخ تصلنا روائح وضجيج. فيديريكو يطرح الموضوع: يريد أن يصور فصلاً عن التيبر. لكن التيبر، برغم أهميته، يظل نهراً مجهولاً: لا

أحد يذهب إليه، لا أحد يتكلم عنه، ولا نجد أية كتابات قديمة حوله. هل بقدور الأستاذ أن يساعدنا، أن يروي لنا شيئاً مهمّاً؟ صمت. فيلليني طرح سؤاله، لكن الآخر لا يجيب. يحدق فينا دون حراك. لقد أسقط في أيدينا ونحن وحيدون أمام هذا العالم الاختصاصي الشهير الذي كان يثقله المرض أكثر مما توقعنا. من الممر أطلت فتاة صغيرة فوق دراجتها، ترتدي ثياب مهرج. الخادم يهرع لنجدتنا. يغامر ببعض الأسئلة، لكن دون فائدة. لم يبق لنا سوى التوجه إلى ابن الأستاذ، الذي قابلنا بتهذيب شديد، ووضع تحت تصرفنا مكتبة والده؛ وذهب به اللطف أن اختار لنا مجموعة من الكتب حول الموضوع الذي يهمنا.

في صباح اليوم التالي ذهبت لتصفحها. وهكذا ألفيت نفسي أقلب صفحات مجلدات قديمة، في قاعة ملأى بكنوز الكتب، ومجموعات المجلات النادرة. شعرت أنني أعود طالباً في المدرسة الثانوية. الفتاة الصغيرة بثياب المهرج تقتحم القاعة، تعبر تحت الطاولات، وتبادرني: «كوكو». تجلس في مقعد وترقبني. أتابع تسجيل ملاحظاتي. تكرر: «كوكو». أكتشف ميثولوجيا مجهولة، نهراً محملاً بالأساطير والخرافات والدماء. نهراً خارقاً، ثعباناً لزجاً ينسل بين البيوت، مستودعاً هائلاً لذخائر العصر الروماني. ملاريا، قراصنة النهر، طقوس غريبة، كنوز مخفية: تماثيل ذهبية، وشمعدانات عبرانية.

أسجل ملاحظاتي على دفتر صغير: قوارب كبيرة، بائعو السمك... المواد الغذائية... في الليل، نهب وحرائق... مسابقات للغطس، إنجازات الغطاسين... حفلات فوق الماء... جزيرة تيبيرين، محجر صحي للعبيد المرضى... ١٦٥٨م: اجتياح الجرذان والجراد... دمار عام ١٠٠٠م. على ضفاف النهر، قصور اندثرت، وجسور تهدمت... ملاريا، طاعون. أكواخ- مواخير، وقوارب- مواخير... طواحين مياه... جثث سحقتها آلات القتل. الرعب من غزو القوطيين... الرومانيون يرمون كنوزهم في النهر... وصفات دوائية (للأرق): الدهن بالزيت... لاكوست، ساحرة سممت المياه، كوخها في فيلابرو (بحيرة صغيرة مجاورة)... بيلات ينتحر، تُرمى جثته في النهر، عواصف، فيضانات؛

يقول العرافون: أخرجوه من النهر. أحد المحكومين بالإعدام يخرجه من النهر جاراً إياه من لحيته... جيولو الثالث فوق قاربه الفخم يهوى الذهاب من الفاتيكان إلى فيللا فلامينيا... فوق جسر سانتانجيلو تم قطع رأس بياتريس سانسي. رأسها سرقه جنود ألمان أثناء الحرب الأخيرة... إلخ...».

الفتاة الصغيرة - المهرج، مع تحيتها «الكوكو»، تجعلني أدرك أن بحثي عديم الجدوى. فيلليني لم يصور هذا الفصل عن التيبر. قبل العدول نهائياً عن ذلك قمنا بنزهة فوق النهر، من جسر ميلفيو إلى فيوميتشينو. القارب المكشوف يتقدم ببطء. الجو بارد. المياه صفراء عكرة تعج ببقايا الأخشاب والقاذورات. تخال كل شيء ينتهي إلى النهر. الحواف الطينية تغزوها خلائط عجيبة تنزلق قليلاً في النهر، ثم تعود للالتصاق بحافته في جماع فاجر. قطع بلاستيكية، بورسلين مكسر وأوعية مراحيض. ثمة حمامات سباحة، لكن من يجرؤ بعد على السباحة في تلك المياه الملوثة؟ فيلليني، بسترة النجاة، وطاقية البيريه الصوفية يتخذ من جديد هيئته التنكرية الغريبة التي كان عليها في الميترو. طبيعة المتشرد، التي يتميز بها، ترفض كل الثياب الرسمية، كل الجاذبيات التقنية.

يلاحظ:

- هنا، لا يزال يغلب الطابع الأثري، الأركيولوجي... تخال أنك فوق النيل. أنظر أعواد القصب. مساحات توحي بأجواء المستنقعات. إنك تتوقع رؤية التماسيح... لكن الحقيقة أن التيبر مخادع كبير، إنه ينسل هارباً في حركة دائمة.

في فيوميتشينو نتناول وجبة من السمك تنسينا البرد وخيبة الأمل.

* * *

فيلليني يستقر أخيراً على المنتج الذي يقبل المشروع: توري فاسيل، من «الاولترا فيلم». رجل صقلّي جشع، ثور صغير بعينين براقتين. يتهالك على الفيلم ويتم توقيع العقد بسرعة. لكن فيلليني لم يكن يعلم نحو أية بلية يتجه.

ها نحن، بعد عدة اجتماعات والكثير من الثرثرة، تحاول صياغة «موضوع أولي»، مسودة سمح بأن نتناقش حول شيء ملموس. «المدينة»، أية مدينة، هي كائن إنساني، تقبل ألف تعريف: هنالك المدن المذكرة، والمدن المؤنثة. روما مدينة مؤنثة. إنها امرأة بهيّة، عدة نساء معاً. أحياناً تراها ندية غضة كصبية عند تناولها الأولح وأحياناً عابسة جامحة تثير السخط. مدينة مثل روما لها كل الأعمار. كل المظاهر في نفس الوقت. إتها تتوافق مع مزاجيتك. روما، ماذا تعني هذه الكلمة بالنسبة لإنسان لم يطأها بعد؟ بالنسبة لريفي يتصورها عبر ما يُروى عنها؟ إنها روما الكتب المدرسية، وهي أيضاً روما التي تسمح بكل الطموحات. إنها كلمة تقرأ فوق عربة قطار عابر؛ ذكريات من سبق له زيارتها. شيء «مختلف»، جاذبيته لا تقاوم. يمكنك بلوغ روما بالطائرة، عندها تتراءى لك المدينة مثل محيط لامع يغطيه ضباب خفيف، قباب حادة، صروح معمارية هائلة، أسطحة لا نهائية ذات ألوان جارة، يمكنك الوصول براً عبر طرق ملتوية لا نهاية لها، يتوه المرء في محطات المحروقات الضخمة المنتشرة على جوانبها. أو بالقطار، وستجتاز حينئذ أحياء شعبية مترامية الأطراف، ومعامل كيماويات، وأفران عالية، ومقابر للنفايات المعدنية. لكن ما أن تصلها حتى تجد نفسك مدفوعاً إلى ذرع شوارعها بتأثر وانفعال. وكل قادم جديد لا بد له، عموماً، من اللجوء إلى أحد النزل، أو الغرف المفروشة التي تكثر في حي المحطة. وفي هذه الأحياء الأمبرتية، بأبنيتها المقيتة، يستقر الزوار الذين لم تتح لهم فرصة عقد وشائج العشق مع المدينة.

وعبر ذكريات المخرج، نعيش من جديد هذا الوصال الأول،الرقيق، الوجل، مع روما ما قبل الحرب. ماطرة لامعة، مليئة بالآمال، ومشاريع العمل. واللقاءات العاطفية. حكايات قديمة ترسخت في الذاكرة بصورة مذهلة: أصحاب النزل، المستأجرون الصينيون، الأصدقاء والشركاء والمتأنقون، استذكار الخطوات الأولى في مدينة جديدة؛ لحظات مؤثرة. هذا إضافة إلى اللقاء الأول مع المواخير، حيث تجد عاهرات يتصفن بالأمومية، وبشيء من الطيبة، ويبرعن

في خلق الوهم الأسروي. المطاعم الشعبية الرخيصة، والمقابلات مع نجوم التشينيشيتا.

التشينيشيتا، ومنذ تأسيسها قبل ثلاثين عاماً، كانت مملكة الأوهام، أوهام الديكورات الورقية الاصطناعية لمخرجين ما انفكوا يقلدون سلوك السادة، بثيابهم المضحكة: البيريه والحذاء عالي الساق. وعبر هذه الصورة جرى اللقاء الأول بين فيلليني والسينما. كانت نوعاً من السينما التاريخية، تعرض روما الأثرية القديمة، مزيفة إلى أبعد الحدود، لكنها مع ذلك، سينما قادرة على إثارة أحلام صبي خجول يسعى إلى تحقيق رغباته.

ذكريات وأخبار وخيال خصب تتفاعل معاً لتشكل نسيج هذا الفيلم الذي يمكن اعتباره بمثابة تحية كوريغرافية فانتازية ومتحمسة لمدينة. الديكورات الضخمة، سواء منها الباروكية أو المعاصرة، توحي بعالمها الخاص. وفصل القصر العدلي يقدم ديكوراً فخماً ومسرحياً لباليه جنائزي. القباب الهائلة للكنائس الباروكية تذكر بجيش مهزوم، بخفقة ثوب كاهن، حي كوبديه (Coppedẽ) بقصوره الزائفة، وأبراجه المشوهة، ليس سوى حكاية خرافية تعج بالأميرات والعفاريت. رمال شاطئ التيبر تذكر بالفراتيللوني ديللابيونا مورتي Fratelloni Della Buona MORTE، بالجثث. في مقابل ذلك تجد القمم الشاحبة لبنايات حي الـ U. E.R. (حي من أحياء روما، بنته الفاشية)، ناطحات السحاب الشفافة، حلم هوائي، صورة من صور الخيال العلمي، معلقة بين السماء والبحر، تنعكس في شارع كريستوف كولومب.

هنالك أجواء الذكريات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالانطباعات الأولى لفيلليني الشاب، متسكعاً في مدينة غريبة ومحبوبة: مسارح الضواحي، وجمهورها الصاخب الرث، بتعليقاته وشتائمه الطريفة أو الجارحة؛ الراديو وبداياته، الأجواء الباهتة، والثلاثي الذي يغني أمام ميكرفون ضخم، المشاغبون الذين يكسرون قشور الجوز أثناء العرض.

هنالك وجوه الأصدقاء الأوائل وأحاديثهم: نتف من الذكريات. صور خاطفة شديدة الوضوح. بعض الفصول قدمتها شخصيات معروفة، من ممثلين وكتاب وفنانين تشكيليين، تبعاً للموضوع. المطبخ الروماني، واستعراض أطباقه الثقيلة الفجة. الفن، والتسلية. والمتعة، روما تحافظ، في كل لحظة، على بريقها وحتمية وجودها ومكانتها. روما، المدينة المرأة متقلبة الأهواء، تستعصي على التعريف أكثر من أية مدينة أخرى.

* * *

عندما نتحدث عن المواخير مع فيلليني تأخذ بألسنتنا حميمية حنونة. يتباطأ إيقاع عباراتنا. لا شك في أنه يصعب على غير المجرب أن يتصور ذلك القلق، ذلك الترقب الذي كان يطبق على حناجرنا ما أن نغادر المنزل متجهين، بالباص، نحو الماخور. غالباً ما يكون المدخل مغطى بنشارة الخشب. ومثل عميلين سريين لطائفة باطنية- جنسية، نتسلل خفية إلى الداخل، يحيطنا دفء لذيذ، وتأتينا روائح العطور ومعجون الأسنان؛ ثم لا نلبث أن ننساق، مثل ضحية مباركة، ونصعد إلى «الصالة».

إني لأعجز عن وصف أنواع الغلالات، وأردية الحمام، وكل الثياب، غير المعقولة، التي تكشف ما كان عليها ستره. الحقيقة أن المرء في الماخور يقضي وقته في انتظار دائم. ينتظر شقراءه المفضلة، ينتظر أن يحين وقت العشاء، أو وقت النوم. كل يتصنع عزلة مستخفّة، نافثاً دخان لفافته نحو السقف، كما لو كان وجوده نابعاً من أسباب شخصية بالغة الخصوصية، يتصنع عدم النظر نحو النساء. «المعلمة»، فوق مقعدها، مستغرقة في حياكة الصوف: «وبعد يا شباب؟! الأرتيستات كلهن هنا». ثمة مواخير رفيعة المستوى، مع غرف انتظار منفردة، كأنك ذاهب لاستشارة طبيب اختصاصي كبير. هنالك، بالفعل، شيء ما يذكر بالمستشفى، مصح غريب يتم فيه تلقيحك ضد هوس الجنس. استراحة قصيرة في غرفة، ثم يتم الأمر. المواخير الأكثر إيحائية تجدها في حي الميناء. في قاعات واسعة، يقسمها حاجز

حديدي، ترى نساء بثياب عجيبة، يهتجن في حركات هيسترية. كنزة فوق صدر عار، حزام فتقي، شلالات من الغلالات الشفافة، جوارب مطاطية، شرائط، شحاطات، أحذية بكعب طويل حاد، يتقدمن لإثارة الرجال، يمددن ألسنتهن، يعرضن بطونهن، آثار جراحة الزائدة الدودية، وعجوزهن ذات الجلد الخشن كورق الزجاج. بين حين وآخر يرتفع مصعد، يرمي بحمله من العاهرات والجنود. فيلليني يأخذه التردد:

- لم هذا الفصل عن المواخير؟ ما علاقته بروما؟ المواخير هي ذاتها في كل أرجاء إيطاليا.

- لكن الماخور هو أكثر الأشياء رومانية، أكثرها كاثوليكية. هنا تأخذ حكمة اليسوعيين حول «النية» معناها الكامل. إذا كانت النية حسنة فالخطيئة تغتفر إلى أبعد الحدود. الماخور مملوء بالنوايا الحسنة: إنه يجنب النساء الشريفات اعتداء الرجال؛ كما يجنب القساوسة اللواط، ويهدئ من فوران الشباب الذي قد يتحول إلى عنف سياسي، إلى عصيان على السلطة... العاهرات يحملن كل خطايا الغير. وبما أن اللعنة قد حاقت بهن وانتهى الأمر، فإن زيادة أو نقصان خطيئة جديدة لن يغير شيئاً.

- نزعة الخمول عند الرجال هي أيضاً ميزة رومانية، يضيف فيلليني. الرجل الذي يذهب إلى الماخور إنما يطلب الاسترخاء. أطول وقت ممكن أمام صورة أمومية ومعطاءة تنزع عنه كل مسؤولية. لكنني أتحرق شوقاً لمعرفة رأي الشباب الذين لم تسبق لهم زيارة الماخور.

وفعلاً قمنا بإجراء استطلاع للرأي في أوساط الشباب، وحصلنا على أجوبة طريفة، كانت غالباً على درجة كبيرة من القسوة.

* * *

ماندراك يأتي لزيارة فيديريكو أثناء تصويره لمشهد فيلابورغيز. إنه لي فولك leeFalk الفنان الذي أبدع ماندراك، شخصية مسلسلات الرسوم الشهيرة. لي فولك هو ماندراكك بعصاه، ووجهه الدائري وشاربيه الدقيقين على طراز «الشاطئ اللازودي ١٩٣٥». بدلاً من اللباس الرسمي تجد البيريه. الساحر، في

ترحال، يقضي عطلته هنا. وجوده يكهرب فيلليني الذي يعبد شرائط المسلسلات المرسومة نمطره بالأسئلة، ويذكر لنا أسماء شهيرة، يروي أشياء مثيرة. أحياناً كان يتجمد مثل الصورة الأخيرة في شريط مسلسل ساخر. إنه جانب آخر من جوانب قطيعته مع العالم الواقعي. لي فولك يلتهم بهدوء طبق السباغيتي، وبإنجليزيته الهامسة يستذكر لنا كبار الرسامين الساخرين الذين عرفهم: ماك مانوس، شيسترغولد، إليكس ريمون، ري مور، هيريمان، وهذا الأخير هو مبتكر شخصية كريزي كات Crazy Kat.

من خلال فولك نكتشف أمريكا الثلاثينات، رسوم والت ديزني المتحركة، أمريكا النجوم الكبار، والإنتاج الهوليودي الضخم.

في صباه، عمل فيلليني لدى الناشر نير بيني Nerbini في فلورنسا. كان يساهم في صياغة النصوص. وهذا الاحتكاك الأول مع رسومات غوردون الرائعة الذي رسخ لديه ولعه بالمناظير المذهلة، والصور الساحرة، وميله إلى الأسلوب المتدفق. واليوم، إذ يقتحم لي فولك في أحد مشاهد الفيلم، إنما يعبر له عن امتنانه وعرفانه بالجميل.

* * *

هنالك دوماً كوميديا داخل الكوميديا. في هذا الفيلم، كما في كل أفلام فيلليني، ثمة فيلم صغير آخر مخصص للمخرج، أقصد المجموعة التي يحيط فيلليني نفسه بها غالباً. فيلليني ولد مخرجاً، ويظل مخرجاً حتى في المطعم، على الطريق، في كل مكان. يحتاج إلى وجود أشخاص نموذجيين، معبرين، هؤلاء يتميزون وفقاً لخصائصهم الفردية.

لكن ما إن يلبس أحدهم لبوس شخصية ما حتى يستحيل عليه الخروج منه دون أن يعرض نفسه للنقمة وعدم الرضا.

لنأخذ مثلاً إيتوري بيفيلاكا الذي كان غالباً حديث الصحافة. إنه مدلكه الخاص. هو الذي يراقب نظامه الغذائي، ويحمل المنديل والكنزة لتوقي البرد، القهوة الساخنة والماء المعدني. نوع من الكلب الأمين. قصير وبدين، أهداب بيضاء، شاربان كثيفان، شديد الصمم، ذو صوت مبحوح، ولكنة رومانية، وإيماءات تذكرك بالكوميديا ديللارتي. لقد ترسخ بيفيلاكا في ذهن فيلليني بالشكل الذي يهوى ويحتاج فس عمله. لكن هذا لا يعني أن فيلليني غير مدرك لشخصية بيفيلاكا الحقيقية.

الشيء نفسه ينسحب على ليليان، سكرتيرته برغامية الأصل. شخصية كسولة لا منضبطة، كثيرة الاحتجاج ماوية تهيم بأفلام رعاة البقر. كانت دوماً على وشك الرحيل إلى كوبا. ثورية تتمرغ في فراشها حتى الظهيرة، فرحة منطلقة، شديدة الذكاء. فيلليني يقبلها كما هي.

وكل المساعدين الآخرين: مينوكوشيو، من عشاق السينما، مكلف بضبط حركة آلة التصوير (الترافيلينغ). رجل متين ومخلص. « رجل حقيقي» كما يصفه فيلليني. بيبيبنورتونو. المصور، ماهر ودقيق مثل عالم ذرة. دعابته لا تكاد تظهر على وجهه الشبيه بوجه عربي. بيبيا، الإداري الرزين الهادئ، صافي الذهن، لا يتوقف عن التهكم والسخرية. دانيلو دوناتي، «الراهب البدين»، محب للعمل وقنوع، يقضي لياليه في تجهيز آلاف الأوراق لتهدئة أعصابه. آخرون غيرهم، كلهم ينتمون الآن إلى هذا المشهد الذي يتكرر منذ سنوات، تشكيلة تدور حول فيلليني كما في المشهد الختامي لفيلم ثمانية ونصف.

هذه المرة أضيف إلى المجموعة اثنان من الغرباء. أحدهما سويسري والآخر فرنسي. السويسري، وهو راهب يسوعي ملتح أنيق ومتحرر. لكنه، كغيره من الرهبان الشباب، لا يخلو من الثورية. الآخر ليس راهباً لكنه ملازم لليسوعي كظله، يحضر رسالة عن فيلليني. اليسوعي اسمه جيرالد، ويتطلع إلى امتهان الإخراج.

- أريد أن أكرس نفسي لهذين النشاطين، الكهنوتية والسينما.

كان لطيفاً، وغالباً ما كنا نثرثر سوية. أساله رأيه في «دينيوية» فيلليني:

أوه فيلليني كاثوليكي!

لكن لماذا تؤيد أنت هذه المقولة؟ الكاثوليكية هي الكنيسة، الهرمية السلطوية... لا شيء من هذا يتواقف مع الذهنية لفيلليني، تلك الذهنية المتقلبة المتشككة.

- قد تكون على حق . لنقل إنه مسيحي.

- هذا أكثر دقة.

- موافق بالنسبة لبونويل.

يبدو لي أن رهبان اليوم يرون المسيحية في كل شيء ، وكل إنسان، لأنَّهم أنفسهم ليسوا مسيحيين. عندما يكون فيلليني منهمكاً في التصوير ترى جيالد وصديقه إلى جانبه يسجلون ملاحظاتهم. وصف المشهد، توزيع آلات التصوير، اللقطات.

ماذا يفيدهم كل هذا ؟ التقنية والأسلوب تخصيصاً لا يُكتسبان بالتعليم. يبدو الأمر بالنسبة إليهما أداء لواجب يومي مثل تلميذين مجتهدين. كأنهما اثنان من هواة الكلمات المتقاطعة، يحاولان، بترقب وقلق، حل رموز شبكة ألغاز فيلليني.

* * *

منذ سنوات، يحتفظ فيلليني في درج مكتبه بمغلفات ضخمة تغص بصور الممثلين والكومبارس، أو الأشخاص المجهولين الذين يستخدمهم في أحد أفلامه. وكلما اضطر إلى تغيير المكتب اتّجه الاهتمام، قبل كل شيء، على نقل هذه المغلفات بعناية فائقة.

على المغلفات ذكرت ملاحظات:

أدعياء الجمال. يصلح لكل شيء. لصوص. جمال أسطوري. عاهرات. قوادات. حشاشون. متوحشون أقزام ومهرجون. جميلات متلذذات. وجوه خارقة.

لوطيون ومخنثون. رجال ملونون. نساء ملونات. رهبان... إلخ. إيطاليون وأجانب، أناس تقدموا الآن في السن. شعب بأكمله. حاضرة، مدينة، حاضرة فيلليني التي تملك مقبرتها الخاصة، لأن الكثير منهم قد ماتوا الآن، لكنهم، مع ذلك، ما زالوا هنا يحتفظون بهيئتهم نفسها. أيديهم في جيوبهم، وابتسامتهم على الشفاه...

فيلليني يهيم بشخصياته كما يهيم الرسام بألوانه. يتأمل طويلاً الأحياء والأموات. حسناء الغلاف التورينوية، القزم النابوليتاني، المحامي الروماني. يثرثر معهم، وبترخم على أرواحهم الميتة. خلف بعض الصور دوّن ملاحظات متفرقة:

- طويلة القامة، متينة البنية، تميل إلى الجمال.

- أكثر أنساً.

- لا بأس. رومانية صغيرة قاسية.

- مجربة. لا.

- أكثر جمالاً، تصلح لعاهرة.

- عيون خضراء واسعة رائعة الجمال. موافق. شوهد.

- نحيف.

- لطيفة جداً، ندية...

- جميلة جداً، طويلة، رشيقة، قاسية. في إفريقيا، تصوير /١٥/ أيلول.

- لطيفة جداً، ساذجة ربما. سيدة ماخور مغناج. أكثر تقدماً في السن وصلبة.

شعب فيلليني يتقلص عدده من /٢٥٠٠/ إلى /٥٠٠/ فرد في الأوقات التي، مثله مثل ميديا، يدمر فيها جزءاً من مخلوقاته. لكن كان لديه دوماً ما يكفي لاستيطان قرية كبيرة تستطيع فيها أن تركب عائلات كاملة، من الجد إلى

الحفيد. قسم من شعب الصور هذا، وهو القسم الأكثر عوزاً، كان يتجسد مادياً طول الوقت، ويلاحق فيلليني بإلحاح شديد متوسلاً إليه أن يبعث فيه الحياة، مثل شخصيات بيرنديللو الست[1]: «دور صغير أرجوك، ابتسامة فقط». يبعدهم فيلليني، لكنهم يعودون . إنهم أطفاله، وعليه تأمين معيشتهم. تراه دوماً في شوارع تشينشيتا، متبوعاً بحاشية ضخمة تجمع الملاكم القديم، والأعرج، والعجوز المجنونة... كاهم يدركون أنهم ينتمون إلى عالمه. هل هي مخلوقات واقعية أم أشباح؟ وكر الشحاذين يلاحقه في كل مكان... في الشارع كما في المطعم.

كنا نشرب القهوة ونتحدث في شؤون العمل. امرأة عجوز تهاجم فيلليني وتتهمه بأنه استدعاها عدة مرات إلى تشينيشيتا دون أية نتيجة: «لكن العدالة موجودة، يا سيد فيلليني، وأنت أيضاً، سأجعلك تدفع». فيلليني يرسم، في الخفاء. علامة الصليب ليطرد الأرواح الشريرة. ويحصل أحياناً، في الشارع، أن يلاحقه ممثل أفل نجمه، يلازمه كظله إلى أن يعطيه فيلليني ورقة نقدية. أعتقد أن جزءاً كبيراً من ثروة فيلليني تذهب إلى إعالة هذه الأسرة المعوزة. لهذا السبب تراه يحلم أحياناً: «فيلم فقير، ممثلان أو ثلاثة لا أكثر، فيلم عفيف». هنالك أيضاً أبناء الأرياف البعيدة، أولئك البائسون المنبوذون. الذين نسيتهم المدنية، بل أسقطت عنهم حق المواطنة، يرسلون، باستمرار، التماسات يستلمها فيلليني من كوى البريد المحفوظ.

«أعيش قلقاً دائماً لأنني أدرك أنني موهوب ولا أحد يلاحظني»، يكتب شاب لومباردي. فتاة من مقاطعة بولونيا ترسل صورتها عارية، وترفقها بخصلة من شعرها لتبين مقدرتها التمثيلية. «أنا معجب كثيراً بشخصيتك، وواثق من أنك، قبل أن ترمي برسالتي... أنا شاب في السادسة عشرة من عمري، ولديّ مشاريع فنية كبيرة، لكنني في هذا الوقت أجد نفسي محرجاً... في أحد الأيام لاحظت أن رجلاً يلاحقني على الشاطئ، وفي كل مكان، ويصورني... كشف لي عن هويته، وقال

---

(١) إشارة إلى مسرحية الكاتب الإيطالي لويجي بيرانديللو (١٨٦٧-١٩٣٦) بعنوان «ست شخصيات تبحث عن مؤلف»-١٩٢١. - المترجم-

إنَّه مخرج، وقد سحرته جماليتي الصورية، وجسدي الرائع، ووجهي المعبر، وعيناي الجميلتان. سأرسل لك صوري شرط أن تطلبها مني لأنني لا أملك الكثير منها. أعتقد أنك رجل ذكي جداً، ولن تترك هذه الفرصة تفلت من يديك. آملاً أن تبقى شخصيتك الفذة الأولى في السينما الإيطالية، وفي رأيي، العالمية...». ولا أنسى كذلك رسائل التهديد والوعيد أو اللعنات. أولها جاء من نيويورك، وكانت مكتوبة بالإيطالية:

«عزيزي فيلليني، فيلم روما سيكون إخفاقاً تاماً يدمر المنتج. غيّر العنوان إذا استطعت. إنها أكثر مدن أوروبا مثاراً للكراهية.

١ - الفاتيكان الممقوت.

٢ - مهد الفاشية سنة ١٩٢٠.

٣ - رشوة، إفلاس، ديمقراطية مسيحية.

٤ - ولادة النازية.

٥ - بذاءة وفظاظة الرومانيين.

في روما تعيشون بأوهام تصنعونها، كل يوم، بأيديكم، فيما بينكم. ماضي القياصرة الإمبراطوري يعتبر، في العالم المتحضر، مشروعاً ضخماً قام به قطاع طرق، فلاحون تنكروا في زي فرسان».

والرسالة الاعتيادية من الفاشي المجهول:

«السيد فيديريكو فيلليني. علمت من خلال مجلة أوجّي OGGI أنك تعد فيلماً عن روما. وحسب ما فهمت يبدو أنك أنت الآخر مستعد لأن تبصق على روما الفترة الفاشية. قد يكون ذلك سهلاً في يومنا هذا (ربما سيصبح أقل سهولة في الغد القريب). على كل، فمنذ ثلاثين عاماً لا يفعلون سوى هذا، ليس بدافع من المثالية، بل لأنه وسيلة لكسب المال، والتصالح مع الذات. لكن حاول قليلاً ياسيد فيلليني، أنت الإنسان الذي يتفق الجميع على وصفه بالقوة، والذي يملك

ميزة العمل في بلد تسوده الحرية المطلقة، وهي ميزة ليست قليلة الشأن، حاول ياسيد فيلليني ألا تفعل كالآخرين، وضع في فيلمك ال٥٠% من الناس الشرفاء الذين عاشوا في تلك الفترة. أنت تعلم جيداً أن نزلاء السجون اليوم لم يتعلموا حمل السلاح، أو تعاطي المخدرات في صفوف منظمة الطلائع الفاشية (O.N.B). ولو كان الأمر كذلك لما جرت إحداث /١٣/ حزيران!... إذا اعتقدت حقاً بعدم إمكانية ذلك فحاول أيضاً استغلال موهبتك في صنع فيلم صغير للأطفال، مثل تلك الأفلام التي نراها في التلفزيون، والتي يصنعها الأمريكيون بالمئات، وتمتاز، إلى جانب أهميتها التعليمية، بكونها أقل تكلفة من ترهاتك! وإذا نجحت في أحد المجالين فسترى كم من عبارات الاستحسان ستسقط فوق كتفيك. إلى اللقاء، وعملاً موفقاً!».

وأخيراً، إليكم رسالة التنجيم التي حملت تحذيراً مخلصاً من نفسٍ طيبة (مجهولة):

«عزيزي فيديريكو، هل تؤمن بالتعاويذ والسحر؟ أنا أؤمن بها! فكر في فيلمك روما الذي بدأ بداية سيئة، وانتهى نهاية مشؤومة (حادث القاطرة). إنه نذير لا ينبغي إهماله، بل عليك أن تمعن التفكير فيه. كفاك تلاعباً بعواطف الآخرين، ودُسْها بالأقدام. كن أكثر إخلاصاً وأكثر صراحة! دع عنك حيل المضلّل الفاسد التي ستقودك إلى الجحيم. أنت أمام مفترق طرق خطير في حياتك. ما زالت الفرصة أمامك كي تعود إلى وعيك وتنقذ فيلمك، وهو العمل الطويل والجدير بالاحترام لا شك. صديق يريد لك الخير».

* * *

ما هي حال الشقة التي سيأوي إليها شاب وصل لتوه من مقاطعة الروماني[١]؟ فيلليني يحتفظ بذكريات واضحة ، دقيقة عن الأبنية الكبيرة قرب سان جيوفاني، أو عن ساحة الاستقلال. سلالم ضخمة وفي الوسط مصاعد متعطلة على الدوام. المنازل الأمبرتية قبيحة الشكل، بناها رجال بييمونيتون[٢] كان همهم الأول أن يجعلوا من روما تورينو ضخمة. هذه المينازل لم تلبث أن اكتسبت طبقة من هبات الفحم الذي تلفظه قطارات تسلك الخط الحديدي القريب. طبقة سميكة لن يكون بمقدور أي مالرو[٣] أن يزيلها بعد الآن؛ عربات ضخمة فوق سكة متداعية فقدت هويتها. من السهولة بمكان تصور هذا النوع من البيوت بوضوح تام، لكن فيلليني يرفض الواقعية؛ كل جو، كل مشهد سيكون له مفتاحه: اللقطة التي ستكسبه تعبيريته. قراءة بين السطور. ستكون شقة شحيحة الإضاءة تسكنها الأشباح؛ أو نوعاً من المقبرة المعتمة مع تجليات مرعبة، مثل قصر مسحور؛ وربما سرداباً كافكائياً طويلاً. أجل ولم لا؟. اسم ذُكر صدفة، اقتنع به فيلليني على الفور: أتالو.

أنا وفيلليني بدأنا حياتنا الفنية، في فترتين زمنيتين متباعدتين، في جريدة مارك أوريليو الساخرة، وكان يديرها رجل فظ هو فيتوبيلليس، جدّي مثل حبر أعظم يخضعنا دون هوادة لنظام تدريبي صارم كان علينا التدرب على اختراع قصص مضحكة تلاقي الناجحة منها طريقها إلى النشر في الجريدة من دون توقيع. كان توقيع أو تحرير زاوية ما يمثل قمة النجاح، دبلوم المؤلف الهزلي. ومثل كل المدارس كان لمدرسة بيلليس حدودها، لكنها عامتنا التقنية والتواضع. كل من تخرج من مارك أوريليو، سواء كان مبدعاً أو قليل الموهبة، كان لا بد أن يمتلك قدراً من الصرامة في

---

(١) LA Romagne مقاطعة إيطالية قديمة على البحر الأرياتيكي. تشكل اليوم مع الإيميليا منطقة إيميليا - روماني. –المترجم-

(٢) نسبة إلى مقاطعة بييمون Plemon، إلى الشمال الغربي من إيطاليا تزدهر فيها زراعة الحبوب وتربية الماشية. أكبر مدنها تورينو. - المترجم-

(٣) نسبة إلى أندريه مالرو الكاتب والسياسي الفرنسي(١٩٠١-١٩٧٦) الذي أمر بتنظيف جدران الأبنية الأثرية في فرنسا أثناء تسلمه وزارة الثقافة بين عامي ١٩٥٩و١٩٦٩. - المترجم-

فن الهزل، إحساساً دقيقاً بالإيقاع، بالقيمة العميقة للحكاية، أتالو كان أحد رسامي الجريدة، طيب ومتوقد الذهن. رسومه كانت تعبيراً حياً عن برجوازية صغيرة تبعث الغم في القلوب. رسوم لا تنسى لبيوت من الداخل، أبرزت تفاصيل تفوح منها رائحة تفوق الاحتمال؛ مطابخ سدت بلاليعها، يتسكع في أرجائها قطط وأطفال رضّع فوق مبولاتهم، نسوة تغلب عليهن البدانة يسترسل الشعر تحت آباطهن، كهول متصابون... بانورما جامعة لهذا الحشد من صغار الموظفين والكسبة يغلبهم البؤس، ويلتمسون العيش بشتى الوسائل، طبقة صمّاء تكسرت أجنحتها وغلبت على أمرها، لكنها ظلت مشدودة إلى عالم أسري فقير. رسوم أتالو لا تقل أثراً عن رسومات كبار الكاريكاتوريين. فيلليني وقد عثر على ضالته المنشودة في اسم أتالو السحري، يستطيع الآن التحضير لمشهد الشقة التي ستكون بمثابة تشويه مكرب لروما ما قبل الحرب. وهكذا بعناية فائقة يعاد بناء المطبخ الواسع، في وسطه طاولة المرمر؛ الفاصولياء الخضراء المنقوعة في الماء. الفتاة التي تغسل شعرها، والجد الكهل الذي يخرج من دورة المياه. كذلك يتم بناء الممرات الغاصة بالخزائن الواطئة والدراجات، غرفة «الخادمة» المقبضة ككابوس، أدوات الحقن الشرجية والمغاسل الصحية (البيديه)، المقالي والأواني المعروضة في الواجهات البللورية، أشياء من ممتلكات الجدة، فقدت شكلها، يتوسطها تمثال حورية البحر المصنوع من السيراميك. شخصيات أتالو لا تلبث أن تنزع علائمها البشرية لتتحول إلى رموز. الابن بكيس الماء الساخن المطاطي فوق الرأس، يسكّن آلام ضربة الشمس التي تعرّض لها أمس في أوسّي. الأم مصابة بمرض في المبيض، تزن مئة كيلو غرام ولا تغادر سريرها. الجد مختل الذهن. لا يتوقف عن تقليد حركات الدوتشي. الحفيدة الطفلة، بنظارتها تزعق من أعماق المرحاض: «انتهيـ.......ت».

هنالك شيء من أتالو، هذا لا شك فيه، لكن هنالك أيضاً نفور من عالم أتالو.

فيلليني يتملكه السرور (يطلعني على أدق التفاصيل وكأنه مالك حقيقي)، ويصرح بأن هذه الشقة تبعث في نفسه نوعاً من الغبطة والتعاطف:

أتمنى لو عشت هنا، يقول وهو يداعب غطاء الطاولة المرعب، ما كنت غادرت هذا البيت مطلقاً، إنه منزل أحلامي !

البلاتوه تغزوه غيمة من البخور تولد شعوراً خفيفاً بالدوار. أتساءل هل حقاً أن البخور ينشط الهذيان؟ لن أستغرب ذلك البتة، فالبخور نوع من المخدرات الدينية مثله مثل الكوكا أو المسكال(١)... كل أفلام فيلليني تدور وسط أجواء ضبابية كثيفة تضفي عليها مسحة من الغموض والشك في وحدانية المعنى. أحياناً يكون الضباب عبارة عن غازات خانقة حقيقية، ويُضطر فيلليني والآخرون إلى ارتداء الكمامات الواقية. الدخان هو خليط من البارود والنفتالين والمغنزيوم. الزبائن نحن في شهر آب (في الفيلم وفي الواقع) حشد من رومانيي عام ١٩٣٨ يكتظون حول الطاولات أمام المطعم. في الإستديو رقم /٥/ في التشينيشتا الخانقة أعاد فيلليني بناء شارع كامل من حي توسكولوسان جيوفاني بدا كل شيء حقيقياً إلى درجة مذهلة: سكة الحديد في الوسط (ستشهد مرور قطار حقيقي فوقها) وواجهات الأبنية، الإعلانات الضوئية، البحرة والبطيخ الذي يبرد وسط مياها، دكان اللحام وجثث العجول المعلقة، ثم وعلى الأخص الحشد... الزبائن نصف عراة، الأطفال في أحضان أمهاتهم أصحاب النكتة والمزاح الساخر، الكل عائم وسط خليطة منصهرة من الغنوتشي - والكرشة «الأكارع» والحلزون. وكان الممثلون يأكلون حقاً كل هذا.

لم يكن بمقدور فيلليني السيطرة على كل هذا بمفرده. كان لا بد من توظيف رجال أشداء للمراقبة وتوزيع الأماكن وإقصاء بعض المتضورين جوعاً خشية أن يلتهموا كل الأطباق قبل بدء التصوير. تسمعهم يرددون: «هدوء... حافظوا على الهدوء!». كم كان مأساوياً أن ترى فيلليني منهمكاً وسط هذه الرعية. خلت للوهلة الأولى أنه سيعجز عن السيطرة على هذا الجيش. لكنه، وهو الذي يجيد الإقناع مثلما يجيد السباب والشتم، يتمكن من إنهاء المشهد.

---

(١) الكوكا نبتة يستخرج منها الكوكايين. والمسكال مستحضر يستخرج من مادة مسكرة مكسيكية تدفع إلى الهلوسة. - المترجم-

كان الممثلون يتبادلون أحاديثهم الواقعية، فلقد جمعناهم واحداً واحداً من مطاعم الترافستير.

- انظر كيف يأكلون! يشير لي فيلليني بتقزز. منذ ثلاثة أيام ونحن على هذا المنوال لا يتوقفون عن الأكل. أطنان من الغنوتشي[1] كل يوم. وعندما ننتهي سيقبضون أجرتهم ويتوجهون إلى الأكل من جديد.

ثمة جانب ذو دلالة عند أهالي روما؛ هذا التوق للوجبات البربرية والعناصر الغذائية المدمّاة، والميل إلى الأجزاء الباطنية والمخفية من الذبائح: الأحشاء، الأمعاء، النخاعات، اللوزات حتى العيون... وجبات الرعاة وقطاع الطرق، لذيذة ودسمة:

سبع قطع طيبة المذاق:

التين، الإجاص والبطيخ الأصفر،

عينا جدي مقلي.

ثقب مؤخرة صبي صغير،

القطة المدمّاة

وجبنة الماكاريز...

هذه اللازمة المعروفة منذ القدم، التي تساوي بين اللواط والموزاريللا، تجعل فيلليني يضحك حتى تسيل دموعه.

بعد ذلك بقليل حدثت المأساة التي بدت وكأنها جاءت لتكشف العمق المأساوي لحياة الرومانيين اليومية: تصل عربة القطار الذي سيستخدم في المشهد تحملها رافعة ضخمة. تتعثر الرافعة وتحطم حجرة القيادة لناقلة تقف في الجوار، ويُحتجز العامل الذي كان في داخلها. جن جنون الحاضرين جميعهم، وتعالى صراخهم، وأسرعوا يبحثون عن قضبان حديدية لاستخدامها كروافع

(١) الغنوتشي طبق إيطالي من الملفوف والجبن. - المترجم-

يدوية... تأخر وصول رجال المطافئ وكذلك عربة الإسعاف. أخيراً يتوصل العامل إلى تخليص نفسه ويهبط من الناقلة وهو يترنح والدماء تغطي صدره، لحسن الحظ لم تكن جروحه خطيرة، وانتهى الأمر على خير.

والطريق المتحلق يذكرك باللعبة. عليك أن تنجح في إيجاد المخرج المناسب. إذا فاتك هذا المخرج يحكم عليك بالدوران من جديد، أو أنك ستجد نفسك وسط سيل من السيارات فوق طريق مجهولة تتجه عكس مقصدك.

تلك الهالة الإسمنتية الضخمة التي تحيط بالمدينة المقدسة تستقبل أيضاً بعض المشاة الذين يرغبون مشاركتك اللعبة. مسافرو «الأوتوستوب» الذين يعلنون فوق قطع من الورق المقوى، عمن محطات وصولهم المستحيلة: فلورنسا، بولونيا، نابولي، ميلانو. إنهم سكان هذا الجحيم، لا يعرفون متى سيتحررون منه. أشبه بمن يقضي حياته وهو ينتظر بثقة حدوث أمر لا تقرره سوى الصدفة. والعاهرات نفوس متهالكة وسط هذه الحلقة المرعبة، بمختلف فئاتهن: هنالك «الريفيات» اللواتي يقطفن الأزهار ويتظاهرنَ بتجاهل حركة المرور الجهنمية التي لاتني تتحرش بهن. و«الملتهبات»، وقوفاً تحت المصابيح يتمايلن بخبث. «المثقفات»، جالسات على حافة الرصيف يتلهين في قراءة الكتب والجرائد. «المتنزهات» باحتفالاتهن البهيجة يحصدن الخيبة. ثم «الأشباح»، إطلالات عابرة، لا يفعلن شيئاً.

نقوم أنا وفيلليني بجولة في السيارة فوق المتحلق بعد إنجازه. الهضاب الشمالية تحمل نكهة التوسكانيا[١] العذبة في الجنوب تشتم رائحة الكامبانيا[٢] البعيدة عبر الخضرة المنتثرة هنا وهنالك. إلى الشرق سهل مترامي الأطراف يذكرك بشاطئ طويل.

---

(١) التوسكانيا Toscanane منطقة من وسط إيطاليا تقع إلى الشمال من روما .

والكامبانيا Campanie منطقة تقع جنوب غرب إيطاليا، وتمتاز بسهولها الخصبة وزراعتها المتنوعة. –المترجم-

يصعب التصوير هنا. فإذا أردت إعادة أحد المشاهد ستضطر قافلة المعدات والتجهيزات، بما فيها صهريج المياه اللازم لصنع المطر، إلى قطع مسافة طويلة للعودة من جديد إلى نفس المكان.

لكن هذا الاستطلاع عن روما الحديثة كان لا بد أن يبدأ من المتحلق. فيلليني يعيد بناء متحلقه الخاص في تشينيشيتا، في المساحة ما بين المسبح وقرية رعاة البقر. لديه/٥٠٠/ متر وهذا كاف. هاهو يزرعه بالحفر والنتوءات ليماثل الطريق الحقيقي الذي لم يطل به الوقت بعد إنجازه حتى امتلأ بها: كان التشابه مدهشاً حقاً.

أراد فيلليني إبراز الجانب المفجع من المتحلق: دهس القطط والكلاب. لكن مذبحة العجول بدت له كافية لإظهار الوحشية التي تمارس ضد الحيوانات.

كانت السيارات تزحف فوق هذه المسافة القصيرة تحت وابل المطر الذي يرشه صهريج المياه. وما إن تدرك النهاية حتى تستدير لتبدأ من جديد. شاحنة ضخمة تتجاوز بصعوبة شاحنة ثانية لا تلبث هي الأخرى أن تسعى لتجاوز الأولى. حذف فيلليني المشهد في المونتاج. «لماذا حذفته؟». «لأنه مهزلة». حقاً... كان في هذا المشهد شيء من الإلحاح والعبث... بدا وكأنه سباق للعبيد.

المتحلق في روما ليس بوابة بل على العكس، إنه نوع من الحماية ضد الأجانب، خندق مملوء بالمياه، يثبط الهمم ويدفع نحو أقدار أكثر بساطة: فلورنسا، نابولي، أكيلا، تيرني...

* * *

«تعال لرؤية الكرادلة»

ويقودني فيلليني إلى مرسم جيلينغ Geleng وأبنائه. من عادة الرسام رينالدو جيلينغ أن يغطي إحدى عينيه بشريطين لاصقين على شكل صليب يبدلهما كل صباح، عادة لا تخلو من الغرابة لدى إنسان يمتهن الرسم، لكنها

تبعث على التأمل عند جيلينغ، فهو يريد إثبات مقدرته على الرسم بعين واحدة. إنه والحق يقال رسام بارع، عنيد وعملي مثل قدماء الرسامين. ها هو يعمل الآن مع أولاده في مجموعة عمل واحدة.

الكرادلة هم مجموعة من اللوحات الضخمة خُصصت لتزيين مشهد الاستعراض الكنسي. وجوه عابسة مكفهرَّة، تخال وأنت تنظر إليهم يتحفزون للقفز فوقك مثل قضاة «محكمة» كافكا. كل الشرور ترتسم على تقاطيعهم المأتمية الفظّة: فسق، شراهية، شراسة، لصوصية، مكر... ومما يزيد من تنفير هذا كله ذلك التداعي الذي تراه ماثلاً في كل شيء، ذلك البذخ المبتذل الذي تسبغه الثياب الأرجوانية. أدهشني معرض الرسوم هذا وسألت: عن أية نماذج نُقلت؟.

«إنهم ممن ممثلي الشينيشيتا» يجيب فيلليني انتقيناهم واحداً واحداً من مغلف صور «الوجوه الكريهة».

عبر تطبيقه الدائم التباين يستطيع فيلليني أن يعطي للجزار دور نائب في مجلس الشيوخ. إنه الطريق الأقصر لبلوغ الحقيقة. لقد استطاعت اللوحات بمفردها، بعد أن عُلقت بالحبال،أن ترسم حدود ذلك الفضاء الجنائزي بالكامل في المركز منصة على شكل نعل الفرس صنعت من الخشب الملمّع. حولها جمهور مؤلف من تماثيل خشبية لعرض الملابس. رهبان وراهبات، تخال نفسك في متحف الشمع. هاهو الكاردينال بلحمه وعظمه، ضيف الشرف في الاستعراض: إنه ممثل كهل يحتفظ به فيلليني ويحيطه بعناية خاصة منذ شهور في انتظار لحظة التصوير. كان يرفض الاشتراك في الفيلم مدّعياً المرض، وقد ذهب فيلليني بنفسه لرؤيته واصطحبه إلى تشينيشيتا حيث أنزله في جناح خاص أقام فيه تحت إشراف الطبيب. كان العجوز المسكين يجر قدميه بصعوبة ليصل الإستديو. يمثل المشهد ثم يعود للنوم. لكن يكفي أن تراه حتى تفهم سبب إصرار فيلليني.لا يوجد كاردينال أكثر كاردينالاً منه. وجه منهك شاحب. فم صغير ينقبض في ابتسامة مصطنعة، قامة طويلة يزيدها هيبة ثوبه الأحمر الطويل، يداعب أطفال المدعوين بيده الضخمة ذات الأظافر المقلّمة:«كيف حالك؟ أنت

ولد عاقل؟ هيه؟ وأنت نائم؟». يقول أيضاً «أتعلمين أيتها الأميرة؟ لقد كنت ولداً شقياً فعلاً عندما كنت صغيراً؟ كنت أسرق الزجاجات...»، إنسان متداعٍ شريف روماني... هذا هو أمير الكنيسة الرومانية، رجل الفاتيكان، داعية سياسة رجعي حليف النبلاء واليد اليمنى للحبر الثاني عشر، ضيف الشرف في حفلات الشاي الخيرية معبود السيدات – رئيسات الجمعيات الخيرية عدو مطلق للطلاق ووسائل تحديد النسل، روماني مثله مثل بيللي Belli والباروك. ها هو اليوم يرعى هذا العرض العجيب للثياب الكهنوتية.

فيلليني يدير كل شَيءْ مثل قائد أوركسترا حقيقي. تبدأ راهبتان صغيرتان عزف مارش للمصاحبة الموسيقية، ويبدأ ظهور أول العارضين طلاب المدرسة الإكليريكية على دواليب التزلج. راهبات في ثياب البعثات التبشيرية، وأساقفة في عرض لزركشات بليدة باهتة تبلغ درجة الخواء الكامل... هيا كل خشبية تحمل قطع القماش المقصّب التي يلبسها الكاهن عادة فوق صدره... دروع، غفارات، قلنسوات، الضيوف النبلاء يجهشون في البكاء. إن ضياع الكنيسة لا يتم هكذا من دون ألم، وهذه المهزلة، استعراض الأصنام المغتصبة هذا إن هو إلا استعراض محاربين قدماء تكللهم الهزيمة... راهبات وخوارنة وقساوسة يغادرون التاريخ وهم ينطنطون في غبطة مفتعلة.

* * *

في مشهد المترو نرى صوراً من جوف الأرض تتعاقب مع صور من سطح الأرض. اختار فيلليني عرض بعض مظاهر روما البيروقراطية من خلال مشاهد صورها في مكاتب أرشيف الدولة (E.U.R).

في هذا القصرالفخم، وبين الجدران المسودّة بتأثير دخان جهاز التدفئة المركزية تحفظ كل وثائق الدولة. خصوصاً ما يتعلق منها بالحياة السياسية: بطاقات التصنيف الأمنية (O.V.R.A)، قوائم بأسماء الأشخاص الذين نفتهم الفاشية، وثائق عن يوميات المحاكم وقوانين الرقابة. فيلليني يصاب بالذهول

أمام ملفات تتناول كل ما يتعلق بولائم منزل السافوا (١٨٨٥). كل شيء مدوّن هنا، من رسائل الدعوة إلى قائمة الطعام مروراً بمخطط الصالة وتوضع المدعوين. قاعات ضخمة... المكان يذكرك بكافكا... في هذا الصرح الواسع نكتشف طابقين يغصان بأعداد هائلة من الكتيبات، متاهة خيالية من الورق والغبار. نتقدم والرعب يتملكنا... عذاب جهنمي أن تقرأ كل هذا... أكداس من الأوراق المختلطة... نتاج قرون من الدسائس والتقارير السرية والرسائل مجهولة المصدر والعرائض والتوصيات... موطن كتاب ومترجمين من الكوميديا الإلهية... الأوهام الأدبية لآلاف الأساتذة تنتهي كلها إلى هنا، إلى هذا المعبد الصامت، معبد أرشيف الدولة.

* * *

روما في الليل... في وقت متأخر من الليل. السيارات المجنونة لا تتوقف عن الحركة في الشوارع قبل الواحدة صباحاً، ثم تتحجر نائمة مثل أولئك الذين تكتسي وجوههم أثناء النوم بلون الموت. رقاد تخشبي أشبه برقاد مصاصي الدماء. كل شيء يتوقف في لمح البصر كما في «الحسناء النائمة». بعض البوابات تظل مشرعة، وفي المداخل ترى سيارات هامدة وكأن صاعقة أصابتها. إنه انتقام القديم من الجديد... انتقام الأموات من الأحياء. حتى الحي الفاشي يكتسي طابعاً أثرياً، كما لو أنه أطلال مدينة شيدتها منذ ملايين السنين مخلوقات من عالم آخر.

إلى أين تقود هذه الشوارع؟ إنها في هذه السلعة لا تقود إلى أي مكان. الساحات فسحات وسط غابة محطمة. في الأزقة ترتمي القطط على بقايا السباغتي متجاهلة الجرذان الضخمة التي تقوم بنزهتها الليلية بكل اطمئنان. أتساءل... هل تلتهم القطط الإنجليزية السباغيتي هي الأخرى؟... لا أعرف مدينة تجد فيها هذا القدر من آثار القيء. في الصيف تزين بقايا البوظة الزوايا والأرصفة، وفي كل الفصول ترى آثار المعجنات والكانوليتشي اللذيذة جداً

خصوصاً عندما تترافق بالحمص. إنها دلائل تلك الشراهة المجنونة التي يرطبها نبيذ رخيص يزيد من عسر الهضم ويورث الصداع.

غالباً ما كنا نتنزه أنا وفيلليني ليلاً، بالسيارة أو سيراً على الأقدام. كان المشهد يبدو جديداً في كل مرة... هنالك دوماً جزئية جديدة... لقيا جديدة...

منذ بضعة شهور يتجمع المخنثون في مجموعتين رئيستين... إحداهما على طول رصيف فلامينيو والأخرى على رصيف فيورنتيني. مجموعة الفلامينيو تمثل النخبة، وتستطيع رؤية الكثير من السيارات تتوقف بمحاذاة تلك النسوة الهائجات اللاتي لا يتوقفن عن التدخين وهنَّ يستعرضن أفخاذهنَ الضخمة. لكن شيئاً من الخشونة والسواد والذكورة يشي بهنّ. يفتقدون تلك النظرة الخفية اللعوب التي تميز النساء. الصفقة تتم فوراً بمجرد اقتراب أحدهم: «كم تريد؟» «..١٠,٠٠٠»... «هذا كثير»... «طيب لن نختلف»...

أما جماعة رصيف فيورنتيني، مقابل ريجينا كوبلي، فهم أكثر عبثية... تنانير قصيرة جداً فوق سيقان مفتولة العضلات... قهقهة صاخبة... أصوات وحركات ذكرية. ولا جدال في أنهم أصحاب نكتة... أتساءل ماذا يفعلون طوال النهار؟- يقتربون بحياء مفاجئ: «عفواً... أنت السيد فيلليني أليس كذلك؟...» الجواب الإيجابي يولد ابتسامة غامضة على شفاههم...

اللصوص (وهم جماعة يسهل تميزها، لا يحاولون التستر) يرتادون بعض مقاهي روما القديمة. إنهم يجيدون أداء أدوارهم – التقاطيع... والحركات والمفردات العامية... لا ينقص شيء. غالباً ما يحتاجهم فيلليني في أفلامه... وهم يحبونه. يفعلون المستحيل لاسترجاع الأشياء المسروقة شرط ألا يتم إبلاغ الشرطة. وكل من يخبر الشرطة يفوت عليه الفرصة، ويعتبر حليفاً للعدو... عليه عندها أن يتدبر أمره بفرده. إنها القاعدة... واللصوص من أكثر الناس احتراماً للقواعد. يتحدثون عن السجن حديثهم عن فندق: «في فريزينون الطعام جيد»... صحيح لكن فيتيربو هو الأفضل... إذا كنتم تريدون إسعادي فأرسلوني إلى فيتيربو». في السجن يتمتعون بالراحة، يعيشون حياة منتظمة وصحية، يلتقون الأصدقاء، بعد انتهاء الفيلم قاموا بدعوتنا للعشاء في

مطعم صغير يقع خلف المسلخ وتغطي جدرانه جلود العجول. قدموا لنا وجبة من الـ «أوسّا ألوغو»... أحدهم كان يرتدي بدلة رسمية. حي المسلخ يذكر بالحبر التاسع وفتحة بوابة بيا (Pia). بيوت واطئة، وعمارة كهنوتية، ومدارس، وأديرة، وأشجار بائسة وجادات تدفع إلى التأمل. المسلخ يعتلي كل هذا... وفي أرجاء الحي بأكمله تدوي صرخات المحكومين بالإعدام... هنا ترى جرذان المجارير المتخمة بالدماء أكثر سمنة. بينما تجد الكلاب والقطط السارحة ما يجذبها وفي نفس الوقت ما يميتها هلعاً... رائحة الموت تدفعها إلى الهرب. في المطاعم المجاورة تقدّم لحوم تكاد تنبض بالحياة. حتى الأشجار التي ترسل جذورها إلى أعماق هذه التربة تحمل شيئاً من التهديد والوعيد.

الأبنية التاريخية الضخمة التي تضيئها مصابيح البلدية الكاشفة تُحفظ في صحوة مفتعلة تزيدها دكنة. قوس جانوس، معبد فيستا، الكوليزيه تطلق رائحة خاصة... عبق عتيق، مهيب، نتن، يبعث الدوار ويثير النفور. عتمة الليل وضوء القمر يضفيان على تلك الهياكل العملاقة شيئاً من الشاعرية المؤثرة. هذا الجانب الليلي لروما الراقدة في سبات عميق، كأنما تحت تأثير تنويم مغناطيسي، هو ما سيتم التعبير عنه في الفيلم من خلال تطواف قافلة الدراجات النارية التي تقوم باغتصاب المدينة الغافية. يبدو كما لو أن هذه الصروح الضخمة قد أصبحت، بعد اختفاء الدراجات، أكثر نبلاً وأكثر غموضاً.

* * *

الحب في روما يشوبه دوماً شيء من الشهوة المكبوتة: إنها العفة الكاثوليكية المتراكمة عبر الأجيال. شحّاذو الجنس يلاحقون النسوة في إلحاح يبعث القنوط ويدفع إلى الهرب. المجلات السويدية والإنجليزية والألمانية تحذر السائحات من الأخطار والمضايقات التي تهددهن في روما. لا يمكنهن الاعتماد على أحد، حتى ولا على الشرطة... من منّا اليوم لا يعرف التكشيرة الساخرة لرجل الشرطة في روما عندما تتقدم إليه فتاة أجنبية طالبة الحماية؟...

فصل الغراميات الرومانية لم يصوّر، واكتفى فيلليني بالإشارة إليه إشارة عابرة في مشهد فيللا بورغيزي حيث نرى لقطة سريعة لفتى يترجل عن دراجته

النارية ويتحرش بعجوزين أمريكتين. هذا على الرغم من المادة المهمّة التي جمعناها وضمت وثائق مدهشة حول شهادات عدد من السائحات من جنسيات متعددة وما عانين من رجال روما.

* * *

الصور المخزّنة في المغلفات لا تشبع غليل فيلليني، فتراه من وقت لآخر يتصيّد إنساناً من نمط معين ويسأله اسمه وعنوانه...لكن هنالك من لا يرحّب كثيراً بالظهور في أحد أفلامه!... النساء على وجه الخصوص يلزمن جانب الحذر. احتاج إحداهم في مشهد من بداية الفيلم... عاهرة ضخمة الجثة... تقف متسمرة على طريق آبيا وهي ترتل قصيدة بيللي E بعنوان إير بادري دي لي سانتي... كان يريدها أن تكتسي مسحة مأساوية ومهيبة، مسحة غول أسطوري. لم يبخل فيلليني بالعاهرات في أفلامه السابقة. فمنذ «الشيخ الأبيض». وحتى «روما» استخدم منهن مايربو على الألف. لكن اصطياد عاهرة مبتكرة من نمط جديد كان شبه مستحيل. وحدث أن لمح فيلليني في الشارع امرأة ممتلئة الجسم تشارف الخمسين من العمر، لا يقل طولها عن المترين، ذات وجه فظ تحث السير بخطا واثقة. وبدأ التحرش... لكن المرأة لم تستجب، ولم تتعرف على المخرج بل أوشكت أن تطارده بعقب مظلتها.

وجد فيلليني ضالته المنشودة بعد طول بحث. عليه الآن أن ينالها. أرسل من يلاحق خطا المرأة وتمت متابعتها حتى أوستي حيث فقد أثرها. جند فيلليني عدداً من مخبريه السريين تمكنوا من معرفة مكان عملها حيث حدد أحد الأذنة عنوان إقامتها بشكل تقريبي، وأخيراً عُثر عليها. «إنها تطابق تماماً الصورة التي في مخيلتي»، يقول فيلليني، «نمط جديد للعاهرة الرومانية... لكن لا يخفى عليك كم كان صعباً أن تقتحم بيت امرأة شريفة لتعرض عليها دور عاهرة بدينة!».

بالرغم من أن فيلليني لم يخض في التفاصيل أعتقد بأن المقابلة كانت ساخنة. المهم أن المرأة رضخت في النهاية، وقبلت الحضور إلى تشينيشيتا لإجراء «تجربة صغيرة».

عاملتها كما لو كانت ممثلة، كما لو أنها ستحصل فعلاً على الدور. يقول فيلليني جعلتها ترتدي الثياب وتتهي ماكياجها من دون أن أنظر إليها. كنت أعطي أوامري إلى مسؤولة الملابس دون مسايرة، وكأنني أعتبر المرأة مجرد تمثال. وهذا ما أدخل إلى نفسها شيئاً من الروعة. أعتقد أنها انساقت خصوصاً خلف ذلك السحر الأزلي الذي يوحي به التنكر والتمثيل والعرض... أخذت تتسلى وتستمتع... حتى إنها رضيت بتعرية أحد نهديها بأكمله تقريباً.

* * *

يتورط باسكال، رجل الأعمال الذي يمول الأولترا فيلم، في فضيحة مالية في سويسرا. البلبلة تعم إدارة الإنتاج. وذات خميس، وفي جو من العطالة والتكهنات المتضاربة ينقطع العمل في الفيلم. لكن هل سيتوقف؟ فيلليني يتوقع توقفاً لمدة شهر... الوقت اللازم تقريباً لبناء ديكورات جديدة. لكن الأولترا فيلم تقول عكس ذلك. إذا كان التصوير قد توقف فلأن الفيلم قد انتهى. هذا الطرح كان في الحقيقة قناعاً يخفي نقص التمويل. أين ذهبت كل تلك النقود؟ كان بمقدور فيلليني كشف المسؤولين بسهولة، لكنه رفض القيام بالتحقيق. قضايا التمويل لم تكن تهم... إنه يريد الاستمرار في التحضير للمشاهد الأخيرة. لكن الموضوع أخذ أبعاداً خطيرة وتدخلت السلطات القضائية، وأخذ الحديث يدور حول الرقابة الإدارية، والإفلاس والاختلاس. وسط تلك البلبلة كنت ترى فيلليني يتقلب بين الحزن والابتهاج، وقد أثاره جو الترقب والمغامرة الذي أخذ يحيط بمصير الفيلم، إن جو الكارثة هو الجو الأكثر ملاءمة لجعل فيلليني سعيداً. لكن احتمال الخروج بفيلم غير مكتمل كان يثير شجنه. لم يكن قادراً على تجاهل شعور حقيقي بالخيبة وبشيء من النقمة على أولئك الذين تسببوا بالغرق.

ولا سيَّما أنَّ، الجناة قد لعبوا دور المجني عليهم: «المخرج المبذّر... تعرف متى يبدأ ولا تدري متى ينتهي... يرمي النقود من النافذة...».

فيلليني يعلن في ابتسامة مريرة: « لو قدر لأي كان أن يحكم على الفيلم بالانتهاء هكذا، فجأة، لتقدمت في وجه الكاميرا قائلاً: سيداتي سادتي، هنالك الكثير مما يمكن إضافته، لكن لم يعد لدينا نقود. هذه المزحة قد تصبح حقيقة ».

كنا نسلّي أنفسنا بالتفكير في مشاريع أفلام جديدة. وعندما بدا أن كل شيء قد ضاع، وكما يحدث غالباً، حصلت المعجزة: وافق أحد البنوك على صرف الملايين القليلة اللازمة، لإنهاء الفيلم. سوف يتم حذف بعض المشاهد، لكن لا يهم، سيصل الفيلم إلى بر الأمان تحت الأنظار الخفية واليقظة لبعض الموظفين الذين كلفوا بمراقبة الصرفيات.

* * *

دانيلو دوناتي أشبه ما يكون بكبير الطهاة. ما إن تدخل مشغل الخياطة الضخم الذي يديره في تشينيشيتا حتى تخال نفسك في مطبخ ذائع الصيت تستخدم فيه الأنسجة الحريرة بدلاً من المايونيز. دوناتي يعمل مع الكثير من المخرجين وخصوصاً مع فيلليني وزيفيريللي وبازوليني. يكفي أن تحجز دورك مسبقاً، وأن تتحلى بقليل من الصبر. ذلك أن عدد المستخدمين محدود والطلبيات كثيرة. عاملات الخياطة منهمكات في حياكة أثواب هزلية ساخرة والابتسامة على شفاههم. بعض «الأيدي الماهرة» تلصق قطعاً من الزجاج والمرايا والبلاستيك فوق الأقمشة. دوناتي، في المكتب، يدخن ويشرب الويسكي، ويتحاور مع فيلليني حول ملابس المشهد القادم. فيلليني هو الذي يرسم الفكرة الأولية بأقلامه الملونة. بمهارة فائقة يرسم أشخاصاً من شتّى الأصناف، رسوماً كاريكاتورية لأصدقاء ومساعدين، نساء شهوانيات، شخصيات أفلام وشخصيات أحلام. يجمع محاولاته الخيالية في ألبوم خاص به لا يستطيع تصفحه إلا كل ذي حظ سعيد. يتملكك وأنت تستعرضه شعور مرعب.

هذه المشاريع الأولية تُحمل إلى دوناثي الذي يثبتها على الحائط ويناقشها مع فيلليني مبدياً ملاحظاته وتصوراته الشخصية. ثم ينتقل إلى التنفيذ. إن استعراضك لمشغل الخياطة الواسع يوازي استعراضك للفيلم نفسه: ثياب الكرادلة الفاخرة، بدلات الفاشيين العسكرية وغلالات العاهرات البراقة... ثم دوناثي وهو يقص ويلصق ويوصل أجزاء من تلك الثياب الثقيلة، ثياب راكبي الدراجات النارية في مشهد الختام.

* * *

تعتبر مقبرة الـ «فيرانو» القديمة في روما مقبرة الرومانيين الحقيقية. وكل روماني أصيل سيختار أن يُدفن في فيرانو بدلاً من أن يُرمى في إحدى المقابر الحديثة النائية. الدفن في فيانو يعادل السكني في قلب المدينة. يجد المرء نفسه وسط الأصدقاء. القبور متينة والأهل لا ينقطعون عن الزيارة. مع انتهاء الخريف تمتلىء فيرانو بالناس مثل فيللا بورغيزي. مجموعات صغيرة من المتنزهين ينتقلون بين القبور بخطوات هادئة، يقرؤون الكتابات ويتأملون النصب وتماثيل المرمر الرمادية... تماثيل ملائكة، جلوساً، يخفون دموعهم بأجنحتهم... صلبان، قلوب، أعمدة قصيرة، تواريخ وأسماء صور في إطارات بيضوية، زهور ومصابيح.

أحب التسكع في المقابر، وفيلليني يشاركني حبي هذا.

- إن الشعور بالسلام والسكينة الذي توفره المقابر لا يولد من قناعة سهلة أو إذعان آلي لهذا السر العظيم، يؤكد فيلليني، بل على العكس، إنه ينبع من حقيقة ماثلة هي أن الموت حاض هنا باستمرار، وحضوره من القوة بحيث يجعلك تغادر المكان وأنت متحرر تماماً. الإحساس بالموت ينسل منك وكأنه روح شريرة يطردها هؤلاء الأموات الذين يحيطونك من كل جانب.

كلما أوغلنا في التقدم داخل المقبرة يزداد المنظر تلوناً حتى يأخذ ملامح حديقة جنائزية خيالية. نبلغ علوة فسيحة تحتلها قبور مستطيلة زينت كلها

بمصابيح ملونة. يكفي أن تُدخل قطعة نقدية حتى يضاء مصباح صغير. قصور فتّانة من الإسمنت والزجاج تنتصب في الجوار تضيئها ألف شمعة وشمعة. هذه القصور، مساكن جماعية حقيقية، تأوي حشداً من القبور المصفوفة بانتظام. عدد من الزائرين يضعون، بخشوع، أزهاراً ملونة في الآنية الموزعة هنا وهناك. في البعيد... هناك قرب بورتو ناشيو نصل إلى حدود فيرانو حيث يسود جوٌّ ريفيٌّ.

ترى سهولاً تنتثر بين أعشابها الجافة مجموعة من الأكشاك... آخر القبور البلاستيكية. نشارف حدود مصب الموت. في الوسط تقوم صروح مهيبة شيدت بطراز احتفالي، تحرس «الموتى في سبيل الوطن» قتلى حروب لا أعرف اسمها. تنتهي المقبرة. خلف الجدار تجد بائعات الهوى... يتنقلن. جثثاً متكايلة، على طول جدار فيرانو. كاهنات حب شبه جنائزي، ينثرن أضحياتهن الانحلالية فوق الرصيف: واقيات الحمل الذكرية المستعملة... قربان مقدس شيطاني. نسير أنا وفيلليني على الرصيف... ندوس بأقدامنا أزهار الكاوتشوك هذه... خيالنا يحوك مشهداً يخلط الهزل والفظاعة. نستذكر مشاهد من «الماستورنا»، الفيلم الذي لم يستطع فيلليني تحقيقه، حيث يترك الموتى قبورهم ليدردشوا قليلاً مع أفراد أسرهم. أخيراً يستقر فيلليني على مشهد قصير للمقبرة يصوره في تشينيشيتا. بورجوازي ساذج يحمل الزهور إلى والده في المقبرة بعد أن قدم الكاتو لوالده. تم استدعاء الممثلين، وحُدّد موعد التصوير لكن فيلليني ألغى المشهد نهائياً في اللحظة الأخيرة... لم يجد الشجاعة... يحس بالصداع. إنها لعنة «ماستورنا» تلاحقنا!.

* * *

ها هو الميزانسين قد انتهى. ظلت بقايا ملاحظات وأفكار... أجزاء من الحوار، والكثير من الأفكار المستبعدة. الميزانسين في الحقيقة أشبه بكتلة من الجليد العائم، لا يظهر منها سوى جزء صغير. فيلليني لا يحبذ ترك أي أثر.

ومن وقت لآخر تراه يمزق ملاحظاته. بيديه القويتين يستطيع تمزيق مجلد دليل الهاتف مرة واحدة. يدهشني إصرار الكثيرين على إرسال الكتب والمجلات والكراسات إليه. آه لو يعرفون المصير الذي ينتظرها!.

نجحت مع ذلك في إنقاذ بعض الملاحظات.

إليكم مثلاً تلك دونها فيلليني حول الاستعراض الكهنوتي: « يقدمون مشروب الفيرموت والكاتو. الكاردينال جالس، مساعده عند قدميه، رؤوس الأولاد معفرة بالبودرة.

- اليوم فُقد التعاطف مع الكنيسة. في السابق كنا كلنا في وئام. كان الأسقف يأتي إلى بيتنا للعب الورق...

- في السابق كنا يا سيدي الأمير نتقابل كل يوم. الآن وقد بتنا متساوين لم نعد نلتقي».

وملاحظة موجهة إلى دانيلو دوناتي:

«الفتيان يغنون وهم يرتدون دروع الكهنة».

هذه ملاحظات أخرى (ملاحظاتي) حول نبلاء الرومانيين: «الأميرة، ٩٦عاماً، لا تستخدم الهاتف، تتنزه بالمرسيدس، تذهب لرؤية البحر في أوسّي. تقرأ الروايات المصورة. تشرب الشاي.

تورلون يعد الخراف: ألفا رأس.

أربع لوحات لغويا. دون غريغوريو يعيش في كازينو الأورور. تخاصم مع الجميع، يتناول الطعام وحيداً، يحب والدته. يشربون نبيذاً من نبيذهم، ويأكلون خرافاً من خرافهم. يلعبون الورق مع الطباخ».

وملاحظات لفيلليني: «النهر، كتابات على جدار الرصيف».

أمريكي عجوز فوق يخته برفقة بحّار. جزيرة تيبرين، الطاعون، الماء الآسن.

يرقبنا أحدهم من فوق الجسر. يبصق فوقنا صارخاً:

- لوطيون.

وهذه ملاحظات أكثر تفصيلاً:

الميترو:

مهندس متصوف، شاعر الإسمنت والسدود. الأعمال معلقة. زيارة إلى روما المندثرة في جوف الأرض، البيت الروماني وتمثال أبولو الرائع. فانتازيا الرومانيين القدماء. الرومانيون الذين يرفضون أن يُدنس سكونهم المقدس.

فيللا بورغيزي:

لوحات صغيرة من عصر روسّو، الليل والنهار، الفصول المختلفة. حديقة الحيوانات في الليل. لوطيون، متلصصون، النباتات. عجوز أمريكية وعشيقها الفتى المدلل. المسرح... فتح الستارة.

عرض. عتمة. الملجأ.

نزهة ليلية.

فندق بائس. شاعر بيد مشلولة، رؤيا ليلية لروما.

تراستيفير

قبل الختام الجميع هنا... أمريكيون، هيبيون، مثقفون، رجال من عامة الشعب.

التيبر:

قوارب ضخمة. ريجينا كويلي Regina Couli. قلعة سانتا نجيلو. تماثيل تحت الماء، وكنوز أخرى.

- روما: حلقة بحث يشارك فيها كتاب ورسامون وسياسيون وكهنة.

حوار حول روما.

بعض الملاحظات الأخرى، إنها خيوط الفيلم الأولى:

- **الوصول إلى روما،** فترة ما قبل الحرب. المحطة القديمة، السيارات الصغيرة، عربات النقل المهترئة. رؤيا مدينة غريبة، أطفال صاخبون. سجاد منشور على النوافذ، حياة ساخنة جائرة.

- **داخل الشقة حيث تقع الغرفة التي استأجرها المسافر.** عائلة صاحب البيت تُقدّم كما في رسوم أتالو: الجد يقلّم أظافر قدميه، الخادمة، الأطفال الهزيلون، النافذة التي تطل على سينما أو على مسرح منوعات.

- **الشاب يخرج من المنزل.** الشارع يغص بطولات صغيرة يتجمع الناس حولها منشغلين في التهام أجزاء باطنية من لحم صغار الخراف والعجول. الترام يمر بين الطاولات.

- **في الليل... الشوارع مقفرة،** لا تزال المياه تتدفق من بعض النوافير. سكير يبتعد مترنحاً. بوابات مغلقة، قطط، قاذورات. عظمة المنظور المعماري، كنائس، أبنية تاريخية... نقترب من الضواحي. هذه درب آبيا التاريخية. قرب أحد القبور تنتصب عاهرة مهيبة تتلو أبياتاً لبيللي. إنها المرأة الأنثى، الملكة، روما.

- **روما اليوم... المتحلق،** حركة سير جهنمية. فوق الإسفلت بقايا الكلاب والقطط والجرذان المسحوقة تحت ألف عجلة. حوله أودية صغيرة كما في تكساس. إلى الأمام حادث رهيب، شرطة المرور، عربة الإسعاف.

- **مسافرو الأوتوستوب بلوحاتهم.**

- **«بابا غالي» يترصدون السائحات...** آراؤهم... الاستجداء الجنسي لشعب مكبوت. الكنيسة تحبذ العلاقات الجنسية الشاذة والسرية أكثر من العلاقات العلنية والطبيعية. حكاية عن العلاقة الجنسية الشاذة عند الرومانيين.

- **رجل من الصفوة الدينية،** لوحته. حصان على شاطئ البحر؟ في فيللابورغيزي مع كلابه، في ملعب الغولف، شبل يرافقه في مكتبه، يزدرد بيضة نسر. أعضاء من الشبيبة الفاشية يقومون بالتمارين الرياضية في أوستي.

- **إفرازات الفاشية:** حي الـ U.E.R مملكة خفية ميتافيزيقية. ملاكم يتهيأ لاستعراض ليلي في قصر الرياضة، يتسكع مع زوجته أو شقيقته بين ناطحات السحاب. في المساء، حشد هائج كما في سيرك مكسيم. الملاكم لا يجد أية صعوبة في الإجهاز على خصمه الريفي الذي ينهار بالضربة القاضية. ويذهب الجميع لتناول البيتزا في مطعم «الأسد الذهبي».

* * *

بعد أعياد التصوير، بعد بريق الأضواء وضجة الجموع والهرج والمرج، ها نحن ندخل مرحلة التفكير والتأمل: فترة الصوم العظيم، المونتاج.

في عتمة قاعة صغيرة تفوح منها رائحة المحاليل الكريهة يجلس فيلليني بين ماستروياني المونتير وأدريانا مساعدته، يتفحص المادة المصورة صورة صورة. يختار، يفكر، يستبعد. المونتاج هو ما يجعل السينما تبدو عقيمة قياساً إلى الأدب. لو أن ستاندال كتب بضعة آلاف من الصفحات، ثم جلس إلى مكتبه يعيد تناول كل شيء يجزئ ويجمع من جديد، تحت أنظار رجل مثل روجيرو ماسثرياني بعينيه المرتابتين لما كان بين أيدينا اليوم عمل مثل «الأحمر والأسود».

فيلليني لا يحتمل وجود الغرباء أثناء ممارسة تمارين المونتاج الروحية. كنت أنجح أحياناً في الاقتراب للحظة قصيرة. سمعت تمتمة، ولمحت ظلالاً تتحرك برصانة كهنوتية، رأيت صوراً تنزلق على الشاشة الصغيرة، تتوقف فجأة قبل أن تعود إلى الخلف. هنا اكتشف فيلليني مختلفاً، لا تستهويه الدعابة، كأنه حزين. في الحقيقة، المونتاج لا يختلف كثيراً عن الاعتراف الكنسي، والاعتراف يترافق دوماً بشيء من الكآبة.

على الأرض تنتثر البقايا. يعاب على فيلليني غالباً كثرة ما يستبعده من المادة المصورة، بحجة أن الصور المحذوفة لا تقل جمالاً عن تلك التي يحتفظ بها. لكن مهارة فيلليني في المونتاج لا تضاهى، ولا شك في أنه تماماً ما يفعله وهو خير من يعلم سبب اختياره.

« سئمت هذا المونتاج. أتمنى أن أخلص منه، لم أعد أحتمل... » يحس فيلليني بالضجر مع بداية مونتاج كل فيلم من أفلامه. وعندما يبلغ منصفه تراه يستعيد صفاءه، لكن عند النهاية يعود من جديد إلى الملل والتقزز.

بعد المونتاج يأتي الدوبلاج. «لا أحتاج الكثيرين... بكفيني نوشيزو هذا والأخوان ليونيللو (البيرتو واورست)... معهم أستطيع دبلجة الفيلم بكامله».

تصريح فيلليني هذا يكذبه الجمع الغفير الذي يتدافع في قاعات الدوبلاج: ممثلون شباب من معهد التمثيل، أمهات يحكن الصوف، كهول فقدوا فرصتهم على خشبة المسرح. كل منهم لا يخلو من عيب أو من حسرة تضطره إلى الاختفاء خلف الميكرفون.

مع هذا الحشد متعدد الأصوات الذي تصعب قيادته مثلما تصعب قيادة فرقة موسيقية فوضوية (كلهم أناس مساكين تشغل اهتمامهم القضايا النقابية: في أحاديثهم تتردد دوماً تعابير التأمينات الاجتماعية والتقاعد) كان على فيلليني إنجاز العملية النهائية – مطابقة كل صوت مع الصورة المناسبة. إعطاء كل وجه جملة حوارية، صرخة، قهقهة. معايرة الأصوات... المخنوق، الأجش، الحاد. أثناء فترة الدوبلاج يعاني فيلليني من شعور بالمرارة والتردد. يرغب في أن يظل محاطاً بالأصدقاء. ينتهز كل فرصة ليتوقف ويخرج لتناول فنجان من القهوة. يتسكع في الممرات. يمقت اللاانسجام في الأصوات. يمتاز بتلك الحساسية المفرطة تجاه كل ما يتعلق بحاسة السمع: الصوت والموسيقا.

* * *

مسبح، ماء أخضر ساكن، غرف صغيرة لتغيير الملابس، طاولات وكراسي طويلة، مقاعد متأرجحة وأخرى عريضة، أكشاك. هنالك أيضاً صالة للعروض السينمائية وصالونات رحبة مليئة بالتحف النادرة: مصابيح من القرن السابع عشر، تماثيل، لوحات لشيريكو...

لكن سوردي لا يستقبل الكثير من الزوار... خلف ضحكته المثيرة يختبئ إنسان قاس وحساس، مخلوق فريد يصعب إدراك حقيقته، خجول ومتغطرس، متصوف وبخيل. «ألبيرتو عظيم حقاً في دورين، يقول فيلليني، عندما يلعب دور الإنسان المُحْبَط، البائس مثل كلب ضربه صاحبه... وعندما يطلق لجنونه العنان. إنه مجنون مهيب، كاليغولا أو هتلر، لا يجارى في هذين الدورين...». منزل سوردي، على رحابته، ليس مريحاً. ترى سوردي يململ في جلسته فوق ديوان صلب، بينما أجد نفسي غارقاً في مقعد ضخم يحجب عني رؤية وجهه من الأمام... أراه فقط من الجانب ومن أسفل... نناقش ظهوره في الفيلم... كان عليه أن يقول شيئاً عن روما والرومانيين.

اكتشفت أنني روماني إثر ذهابي إلى ميلانو، يقول سوردي، وقتها لم تكن روما على ماهي عليه اليوم، بينما تركت لدي ميلانو أثراً بالغاً. كل تلك الأضواء، تلك اللوحات الإعلانية... الناس يعبّرون بطريقة مختلفة... وتنبهت إلى أنني كنت أتكلم باللهجة الرومانية، الأمر الذي لم أكن أعرفه من قبل... شعرت بالخجل.

يرى سوردي أن الشيء الأهم في روما هو الصداقة... بين الرجال!. يعلن ذلك بضحكة طاغية وعيناه الماكرتان تكذبانه. لكنه صادق. لا يخدعنك مظهره الفظ... إنه إنما يخون حياءه الروماني فقط. رأيناه على حقيقته أثناء تصوير مشهده في التراستيفر... بدا وجلاً، مضطرباً ومتردداً. واضطر إلى إعادة المشهد عدة مرات. - «خلت أنني أحلم»، أعترف فيما بعد. « تذكرت الأيام الخوالي، مع فيديريكو... ».

سوردي، ماستروياني، آنّا مانياني هم وحدهم، من بين الممثلين، الذين اختارهم فيلليني للظهور في الفيلم، لأنهم خير من يمثل بعض أنماط الشخصيات الرومانية. مارشيللو ماستروياني، الصديق الأوفى لفيلليني، يقبل دون تردد. دوره في الفيلم يقتصر على دردشة عادية تتلاءم تماماً مع جو مرح. ثم يسافر إلى باريس حيث وجد وطناً آخر، أسرة أخرى، طبقاً آخر من الفاصولياء بالزيت، التي يهيم بها.

«إنها ملكة»، يقول فيلليني، «ملكة الغجر، ملكة خرافية...». وذهبنا للقائها.

كانت آنّا مايانى وحيدة أمام التلفزيون. ترتدي ثوبها الأزلي الأسود، لون الحداد والفوضوية. تتململ، تجلس مباعدة ساقيها، تتحسس جسدها... تداعبه وكأنها ما عرفت العشق يوماً... أو كأنها تخشى عليلة. كنا أنا وفيلليني مثل تلميذين لم يكتبا وظيفتهما. كان يتوجب علينا تحضير شيء ما حول دورها في الفيلم، لكننا لم نجد شيئاً. عرضنا عليها أفكاراً سبق واستبعدناها. لا أملّ النظر إلى وجه آنّا، ذلك القناع المدهش، بالأسود والأبيض، مشحون بالاستخفاف والكبرياء، حزين ومشرق في آن معاً.

«إطلالة سريعة، مثل فستالية[١]، عذراء طاهرة، وجه سحري رمز من رموز روما... تدخلين، تبتسمين، ثم تغلقين البوابة... مدينة غامضة تأبى نزع حجابها»، يشرح فيلليني.

- «طيب، ماشي»، تجيب آنّا. «لكن هل تعتقد أن هذا ضروري حقاً؟... لقد عملت فيلماً جميلاً جداً... فهمت روما والرومانيين على خير وجه (كانت آنّا قد رأت بعض مشاهد الفيلم).

لماذا تريد بأي ثمن إقحامنا أنا وسوردي وماستروياني؟... هذا يذكرني بالسينما الأمريكية التي تصر على إقحام فرانك سيناترا أو بوب هوب في لقطات قصيرة في أفلامها...».

---

(١) الفستالية هي كاهنة الإلهة فستا، إلهة البيت والدولة والخاصة في روما القديمة ومعناها المجازي العذراء الطاهرة.

آنّا تزداد إشراقاً عندما تستخدم اللغة المبتذلة. الكلمات البذيئة تخرج من فمها برشاقة فائقة...تبدو كلمات في مكانها... تلائم السباق تماماً. يقال الآن الحقيقيُّون هم وحدهم من يجيد الأكل بالأيدي.

«أجل، بالطبع يا آنّا». لم يسبق لي أن رأيت فيلليني وجلاً بهذا القدر. «لكن كيف لي أن أصنع فيلماً عن روما من دونك أنت؟...

أنت روما، أنت ما فيها من أمومة، من مرارة. من ميثولوجيا ومن خراب». كلمة «خراب»لا تزعج آنّا. فيلليني على حق... إن لها وجهاً تثقله الهموم... إنه لوحة أكثر منه وجه. فيه تقرأ الألم والانكسار ونبل التمرد. ولا شك أن التوازي روما - مانياني واضح للعيان. إذن فمن أين تتبع الصعوبة في إيجاد مكان لها في الفيلم؟ إليكم الجواب: «كنا نريد إعطاءها دور المعارضة والرفض»، يتمتم فيلليني ونحن ننزل السلم. «كنت أريدها أن تظهر في إطلالة سريعة لتؤكد بلهجة هجومية أنتي لم أفهم شيئاً من حقيقة روما، وأن فيلمي هو مجرد زهم وتخيلات. أما الآن وقد رأت الفيلم وتحمست له لم يعد بإمكانها أن تؤدي دور المعارض هذا. إنها الآن وجه روماني بين غيره من الوجوه... عمود تراجان أو قلعة سانتانجيلو. وهذا تحديداً ما لا أريده. لا أحب جانب البطاقة البريدية هذا. إذا كنت استبعدت عرض عمود تراجان في الفيلم فكيف لي أن أعرض فيه آنّا مانياني؟».

في منزل فيلليني الجديد، على طريق «مارغوتا»، هنالك القليل من الأثاث، السجادة لا تزال ملفوفة في أحد أركان الصالون. أضع آلة التسجيل فوق الديوان، وبإحساس غريب بالدعابة، أسأل فيلليني عن انطباعاته حول فيلمه وحول روما. لنستمع إليه:

ما هي روما؟... غالباً ما سألت نفسي هذا السؤال. لا أملك جواباً واضحاً. يتراءى لي وجه كبير طافح بالحمرة، ربما يشبه وجه سوردي، فابريزي، مانياني، تعبير مثقل برغبات أكولة – جنسية. تخطر في بالي أراض بنية، طينية؛ سماء غائمة ممتدة الأطراف، غارقة بديكورات أوبرالية ذات ألوان بنفسجية، سوداء فضية، ألوان الحداد. لكنه يظل في نهاية المطاف وجهاً يبعث على الطمأنينة، ذلك أن روما تتيح لك شتّى أنواع التأملات، في الاتجاه الشاقولي. إنها مدينة أفقية من أرض ومياه. فيها يعيش الفنانون والمثقفون بين بعدين- الواقعي والفانتازي- ويجدون مِنْ ثَمَّ تلك الفسحة التي تسمح لهم بتحقيق ذاتهم، بالانعتاق في نشاطهم الروحي دون قطع رباط السرة ذاك الذي يربطهم بالواقعي والمحسوس. روما هي أم، إنها الأم المثالية لأنها لا مبالية، لا تنتظر شيئاً منك ولا تطالبك بشيء... تهفّ لاستقبالك عندما تسعى نحوها، ولا تعترض سبيلك عندما ترغب بالرحيل. كأنها محكمة كافكا. ثمة في ذلك شيءٌ من حكمة القدماء، حكمة أشبه ما تكون بالحكمة الإفريقية، حكمة ما قبل التاريخ. وسحرها يكمن فيما تمتلك من تاريخي، من أصيل يتبدى عبر منظوراتها المدهشة، عبر شيء من القساوة التي تذكر بمستحاثات الماموث.

هذا المظهر المطمئن لروما لا يخفي جوانبه السلبية. صحيح أن روما لا تحوي الكثير من العصابيين، لكن صحيح أيضاً أن العصابية هي هبة سماوية، كما يقول «كارل يونغ»، وأنها تفيد في كشف نفسها حتى العظم. إنها تدفع الطفل لأن يغدو بالغاً. روما، ببطنها المنتفخ كامرأة حبلى، لا نقابل فيها ناضجين أيضاً،

إنها مدينة أطفال سيئي التربية تتنازعهم الريبة واللامبالاة. لهذا السبب نجد في روما ذلك الارتباط بالأسرة. لا أعرف مدينة يتحدث ناسها عن الأهل بهذا القدر. إنك تعيش هنا وسط أساس محددين تماماً بخصائصهم البيولوجية المشتركة. حتى الجنود هم «أبناء أمهاتهم». روما مدينة لا تضطرك إلى التأدب. الجملة الشائعة جداً: «بالله من أنت؟ أنت نكرة» هي أيضاً مطمئنة.

غالباً ما أُسأل لماذا عملت فيلماً عن روما. حسناً، من وقت لآخر أتلقى عرضاً لتحقيق فيلم. التلفزيون الأميركي مثلاً أرادني أن أسافر إلى التيبت والهند والبرازيل لعمل نوع من الاستطلاع الغرائبي حول الأديان والسحر... كان عرضاً مغرياً وافقت عليه دون تردد، لكنني كنت أعلم مسبقاً أنني لن أغادر مكاني. إن تنقلاتي محدودة في مثلث روما – أوستي- فيتيربو، أشعر هنا بالراحة، وجوابي يمكن أن يكون: «عملت فيلماً عن روما لأنني أعيش في روما ولأنني أحب هذه المدينة». عندي أيضاً سبب آخر. بعد فيلم «الحياة الحلوة»، مباشرة لاقت بعض الأفلام الإيطالية ذات النزعة المستوردة (الأكزوتية EXOTIQUE) الكثير من النجاح. على الأثر، ربما بسبب ميلي إلى المجادلة، وربما لإيماني بذلك، تبنيت مقولة أن لا حاجة للسفر بعيداً كي يكتشف المرء ما هو غرائبي وعجيب ولا متوقع. ومنذ ذلك الوقت جاءتني فكرة روما وهي تتكشف تحت أنظار إنسان غريب، مدينة في متناول اليد وفي نفس الوقت بعيدة كل البعد مثل كوكب مجهول. الآن وقد أنجز الفيلم، لا أدري إذا كان ينطبق مع الفكرة. إنني أعجز عن الحكم على أفلامي، عندما ينتهي الفيلم أعتبره وكأنه قد صُرِّف. أترك له مسؤولية أن يدع نفسه يشاهَد ويُحَبّ. أعتبر ملاحقتي ومراقبتي له نوعاً من قلة الحياء.

ثم إنني أعتقد أنني لن أتعرف إليه، لأنك حتى عندما تكون المخرج فإن الفيلم يفلت منك... أنت لا تصنع فيلماً بل عدة أفلام جزءاً إثر جزء.

الفيلم هو، بدايةً، ما تتخيل، ما ينبثق من مناقشاتك مع مساعديك تراه من خلال منظور بعيد، جذاب ومتحرر... ثم تأتي المرحلة الثانية، الميزانسين. تتم كتابة الفيلم، ومنذ هذه اللحظة تجده يبدأ بالتغير، ينغلق في كلمات تمتلك قدرة

على إثارة تداعيات ذاتية ومتنوعة. المرحلة الثالثة، عملية التحضير، اختيار الوجوه والابتسامات والأماكن، وتزداد الفجوة شيئاً فشيئاً بين تصوراتك الأولية وما تحققه على الصعيد الفعلي. وعندما تبدأ مرحلة التصوير تشهد أمام عينيك ولادة فيلم مختلف، ولادة تخضع لشروط الإضاءة وعدسة التصوير... ربما كانت هذه أجمل اللحظات وأكثرها سحراً، لكن الفيلم يتغير وسيتغير أكثر غداً عند العرض الأول بعد المونتاج من دون شريط الصوت، حيث ترى الممثلين وهم يحركون شفاههم في صمت كصمت المقابر... ثم يأتي الدوبلاج، الموسيقا...

الفيلم طفل ينمو. يشبه أباه في البداية، ثم أمه. يكبر قليلاً، يأخذ رغبة بالظهور، وشيئاً فشيئاً تراه يشبه جده... الفيلم يتغير مثل الطفل.

لم نستخدم جزءاً كبيراً من الميزانسين. كنا نريد تحقيق فصل عن حركة المرور في الليل، وآخر عن مباراة روما - لازيو مع أحد المشجعين الذي يخسر رهانه ويتوجب عليه الغطس في بحرة ساحة الأبطال... فصل عن نساء روما وآخر عن البوننتينو PONENTTNO والغيوم. كلها فصول لم تصوّر مثلها مثل الفصل الخاص بمقبرة فيرانو. الموت في روما يأخذ دوماً طابعاً عائلياً وكأنه واحد من الأهل والأقارب. بعض الرومانيين يقول: «أنا ذاهب لرؤية والدي، أنا ذاهب لرؤية عمي»، وتكتشف أنه ذاهب إلى المقبرة. هنا أيضاً تجد شكلاً آخر من أشكال البيروقراطية - مع الموت يمكنك أن تتدبر أمرك، لا بد أن تجد لك ابن عم في الجنة يمكنه أن يدعمك. وهذا ما ينزع عن الموت جانبه المقلق. يكفيك أن تتذكر أن الرومانيين يسمون الموت «العرّابة الجافة»، عرابة أي، بشكل ما، من العائلة. هنالك تعابير أخرى مثل: إنه يصنع سماداً للحمص». حتى في المقابر تحافظ روما على مظهرها الذي أشبه ما يكون بالشقة الواسعة حيث يمكنك التسكع بالبيجاما والشحاطة. لكنني لم أصور هذا الفصل، على كل حال هنالك في الفيلم روما، تلك المقبرة الضخمة التي تعج بالحياة. كيف كان بمقدوري أن أتناول كل شيء؟ على مدى ثلاثمئة وأربعة وستين يوماً تستطيع أن تظل غريباً عن روما، ثم فجأة تجد نفسك في جو يولّد في داخلك إحساساً بالوصال يأخذك من الأعماق، يجعلك تنتفض ذعراً أو ارتياحاً. قليلة هي المدن

التي تعطيك هذا الانطباع. في إفريقيا مثلاً تحس براحة داخلية عميقة. فضاء مختلف، إيقاع مختلف، نوع من الاختلاج، من الشفافية. لا تجد ذلك في الفيلم. لم أستطع إيصاله إليه. أولاً لأنني أطلت في التصوير وكان علي أن أنتهي، ثم إن في هذه الأحاسيس شيئاً ما يستعصي على التعبير. كنت أود عرض لوحات ذات جمالية تفوق تصور البشر: صور خرساء وحارقة، احتفالية وشاعرية. لا نجد ذلك في الفيلم، للأسف حقاً. الآن وقد انتهى الفيلم، لدي شعور غريب لم أعتده.

في السابق... عندما كنت أنهي أحد أفلامي كنت أشعر بأنني قد استهلكت المادة بالكامل... « قد ذبحتها من الوريد إلى الوريد». إثر انتهائي من فيلم «ليالي كابيريا» بدا لي من غير المعقول أن يظل موقع مشهد نزهة الآثار باقياً في مكانه، بدا لي أنه ينبغي تفكيكه كما نفكك ديكور المسرح. في هذا الفيلم، على العكس، لدي انطباع بأنني لم أتوصل حتى إلى ملامسة الموضوع. لقد حققت فيلماً عن روما، وروما بقيت غريبة تماماً عن فيلمي. لدي انطباع بأنني قد خدشت حياءها.

لقد حضّرت لفيلمي بحماسي المعهود. جبت أنحاء المدينة، نقّبت في أبعد زواياها، لكن في النهاية، كل هذه الأماكن، هؤلاء الناس، تلك القصور، ذلك الديكور بالغ العظمة، كل ما كنت اعتقدت امتلاكه بدا لي في كامل عذريته. بدهشة بالغة أكتشف أن روما لم تكن ملكي في أي وقت من الأوقات، حتى ولو للحظة واحدة. على العكس، ها هي ترمقني باستخفاف، عصيّة المنال أكثر من أي وقت مضى، وهذا ما نريدها سحراً وجاذبية.

إنها أشبه بامرأة: امتلكتها، سمعتها تتأوه بين ذراعيك، وعندما تلقاها بعد أسبوع لا تتعرف إليها...

باختصار ما زلت أتحرق شوقاً لعمل فيلم عن روما.

القسم الثاني

السيناريو الأدبي لفيلم «روما»

السيناريو الأدبي لفيلم
«روما- فيلليني»

الفيلم من إخراج: فيديريكو فيلليني.

سيناريو : برناردينو زابوني- فيديريكو فيلليني.

مدير التصوير: جيسيي روتونو.

موسيقا : نينو روتا.

مونتاج: روجيرو ماستروياني.

ديكور : دانيلو دوناثي.

تمثيل : بيتر غونزاليس- بريتا بارنيس- بيادو دوزيس- فيونا فلورنسي- مارن مثيلاندي- بالاشتراك مع : أنا مانياني- مارشيللو ماستروياني، غورفيدال، ألبيرتو سوردي في شخصياتهم الحقيقية.

إنتاج : أولترا فيلم، أرثيست أسوسييه.

إيطاليا ١٩٧١- ملون-١٩٥ دقيقة.

تمت الترجمة عن النص الفرنسي الذي قدم له وعرضه بيرناردينو زابوني، وصدر عن دار سولار للنشر- باريس ١٩٧٢.

روما في ذكريات الريف

شفق خريفي. في غبش الفجر، ثلاثة قرويين على دراجاتهم، يتقدمون ببطء على طريق إيميليا. فوق حجر علّام عسكري ضخم تآكل بفعل الزمن نقرأ: روما ٣٤٠. في البعيد نميز بريق أضواء سان مارينو. الفلاحون يتحدثون بلهجة ريميني المبهمة، لهجة غامضة عصية على الفهم.

- أتعرفين يا أماه، لقد رأيت فانينون في الحلم، ما أخباره؟

- لقد أرسل رسالة من أمريكا...

- ماذا يقول فيها؟

- إنهم، هناك، لا يأكلون سوى الأطعمة المعلّبة.

* * *

رجل بدين ذو هيئة صارمة ولحية صهباء يخوض بقدميه العاريتين في مياه جدول ينساب بين الأحجار. ينزع قبعته باحترام ويعلن في لهجة بلاغية:

- هو ذا الروبيكون.

مجموعة من التلاميذ في بدلات عسكرية مع معلمتهم، مسمرين على ضفة الجدول، يصغون بصمت مطبق إلى المدير الذي يشير إلى النهر بطرف عصاه الطويلة متابعاً:

النهر الذي اجتازه يوليوس قيصر وهو يصيح: «فلتكن مشيئة القدر» Alea Jacta Est

اخلعوا أحذيتكم يا أبنائي.

المعلمة، امرأة عادية مسكينة، بدينة قصيرة القامة، ذات وجه جامد، ترتدي الزي الفاشي، تردد بلهجة ريميني:

اخلعوا أحذيتكم.

فلنجتز النهر معاً، يضيف المدير. إلى روما! «فلتكن مشيئة القدر».

* * *

يتساقط الثلج فوق ساحة المدينة الصغيرة. لاستوس، أبله القرية، يقف بجوار تمثال ليوليوس قيصر فقد يداً وجزءاً من الرأس، وقد أوقد ناراً صغيرة يتدفأ بها. رأى في الجريدة أنهم يتحدثون عن موسوليني، وهذا ما جعله يضحك. يستدير نحو يوليوس قيصر ويتمتم جملاً متقطعة هازئة. يصادف ذلك مرور أطفال ثلاثة يحتمون تحت مظلتهم، يستغربون تصرفه، يتوقفون لسماعه:

أنا أريد، آمر وأريد. عاش بادوغليو[١]...

ذو الرأس المقطوعة فاشي... إنه فاشي، لقد اجتاز الروبيكون والآن ها هو ذا كالمغفل. هل تحبون موسوليني يا أولاد؟ يوليوس قيصر، أيها الروماني هيا ارفع يدك بالتحية الفاشية.

لاستوس يطوي جريدته، يأخذ نفساً أخيراً من عقب لفافته قبل أن يرميها نحو التمثال الذي يبدو وكأن يده المقطوعة ترسم إشارة غامضة.

يبقى الأطفال مشدوهين مسمرين تحت مظلتهم.

امرأة تنظف بيتها، ترقب لاستوس ضاحكة وهي تدمدم جالسة على حافة نافذتها.

على خشبة المسرح. يجري عرض مسرحية يوليوس قيصر... الحدث يبلغ ذروته... أمام ديكور المجلس بأعمدته الكبيرة، يطل بروتوس من خلف تمثال ضخم ويتقدم بحذر من قيصر الذي يتحدث إلى كاسكا:

- احضروا لي عريضة ماثيلوس سيمبروس وسأطلع عليها...

بروتوس، الذي أصبح الآن خلف الإمبراطور، يستل من حزام ردائه الروماني خنجراً يرفعه صائحاً:

والآن، أدع يدي تنطق بلساني!

بعنف يغرز النصل في ظهر الطاغية الذي يستدير مترنحاً وهو يتمتم بصوت مختنق:

حتى أنت، يا بني!

كاسكا بدوره يوجه طعنة خنجر إلى قيصر، وينهال عليه بروتوس بطعنة أخرى في قلبه. قيصر ينهار وهو يغطي وجهه بطرف ردائه. تنسدل الستارة وسط تصفيق المشاهدين المجنون. تفتح الستارة على يوليوس قيصر وهو يحيي الجمهور ويشكره، يقدم بقية الممثلين، ومعاً يؤدون التحية للجمهور.

* * *

قطرات المطر تنساب فوق زجاج المقهى. خلف الزجاج نميز شبح لاستوس وبين شفتيه عقب لفافته الأزلي. بجانب جهاز تقطير القهوة يقف رجل قصير القامة مطبق الجفنين يغالب النعاس.

على البار يتكئ يوليوس قيصر وقد أزال ماكياجه، يرتشف كأساً.

يضع الكأس ويلقي على نفسه نظرة في المرآة: يسوي وضع قبعته بحركة انسيابية وبعناية فائقة. عاملة البار، وقد أبهجها وجود شخص بهذه الأهمية، تصلح تسريحتها بانفعال وتسرع أمام المرآة. عدد من الفتيان يرقبون بنظرات لا مبالية الحركات الاحتفالية لهذا التاريخي الكهل الذي يتخذ هيئة الاستعلاء والاستخفاف بكل ما حوله.

أحد الزبائن، من خلف طاولته، يعلن:

- لقد رأيته في مسرحيات عدة، في «الكاردينال لامبرتيني»، «الأشباح»، «الموت الوقور»، لكنه أبدع في يوليوس قيصر،إنه يجعلك ترتجف. يستدير نحو الممثل قائلاً:

- أستميحك عذراً، ولكن... حقيقة لقد أبكيتنا مساء أمس... لقد كان. يوماً مشهوداً بالنسبة للفن.

الممثل يلف منديله الحريري الأبيض حول عنقه برشاقة مدروسة، ويلقي بابتسامة شهوانية متقززة في وجه عاملة البار قبل أن يستدير خارجاً.

* * *

في غرفة الصف، المدير يلقي درساً في التاريخ. يسير بتثاقل بين المقاعد وقد أحنى ظهره قليلاً، يترصد كطير جارح. يحمل عصاه الخشبية الطويلة خلف ظهره.

اعتراف أزلي بالجميل لتلك الطيور البسيطة... من وقت لآخر يتوقف بغتة ليفاجئ أطفالاً يتلهون... اعتراف أزلي بالجيل لتلك الطيور البسيطة التي أيقظت بصراخها أولئك المحاربين الذين تمكنوا من حمل سلاحهم وإنقاذ روما.

المعلمة واقفة بجانب المنبر، يداها فوق خاصرتيها:

آه... هذا أنت، دوماً هكذا، سيدي المدير!

المدير يضرب بعصاه فوق أحد المقاعد ثم يستدير نحو آخر الصف وهو يتخذ هيئة شاردة لأستاذ يريد مباغتة تلميذ مشاغب وإرعابه. المعلمة تشير إلى شيء ما في الخارج:

ها هي أوزات الكابيتول، هناك في الخارج.

يقفز التلاميذ جميعاً ويتدافعون في فوضى بالغة نحو النافذة.

- بهدوء... هدوء.

أطفال يصعدون فوق المقاعد، آخرون يقلدون أصوات الحيوانات بصوت عال: كوين، كوين، كوين. المدير يرتمي فوق التلاميذ المصلوبين أمام النافذة وأنوفهم ملتصقة بالزجاج، يدفعهم بقسوة إلى مقاعدهم.

- عودوا إلى أماكنكم. لا أسمح بهذه الضوضاء يا إلهي... عودوا إلى أماكنكم. لسنا في سوق هنا! أنتم في المدرسة!

يقود تلميذاً إلى مقعده وهو يشده من أذنه، ثم يوزع ضرباته على رؤوس الأطفال الحليقة.

- صغار قذرون! ملاعين! مصروعون! سأقمعكم جميعاً، أوه يا إلهي!.

* * *

صالة الطعام في إحدى المدارس، قاعة ضخمة كالحة ملأى بتماثيل القديسين، وبخزائن سوداء تبعث الغم. التلاميذ، وقد أنهوا عشاءهم، يجلسون أمام طاولات خشبية طويلة يستمعون بصمت إلى صلاة الشكر يرتلها الراهب-المراقب.

- إن سيكولاسيكولوروم، آمين[١].

- آ... مين

- وقوف. يأمر الراهب...

يقف الأطفال في حركة واحدة.

- رفع المناديل.

معاً، يرتب الأطفال مناديل الطعام في حلقاتها الخاصة.

- ضعوا مناديلكم.

يضعون مناديلهم فوق الطاولات.

- هيا.

يتوجهون للجلوس في صدر الصالة أمام شاشة بيضاء يقوم بنشرها راهب شاب (شاب حديث الترهبن).المدير يكمل طعامه جالساً أمام طاولة صغيرة فوق المنصة بينما تقوم المعلمة على خدمته، وبعناية فائقة تسكب له الماء في كأسه.

ينحني الراهب- المراقب أمامه بخشوع ثم يتوجه نحو تلاميذه.

- هدوء!... أريد النظام والهدوء! تطفأ أنوار الصالة. الراهب الشاب يقحم الصور الفيلمية في جهاز الإسقاط. التلاميذ يتأملون الشاشة حيث تبدأ صور المباني الرومانية الأثرية بالظهور ويشرع الراهب.

- المراقب بالتعليق عليها:

- ذئبة الكابيتول. من البرونز الخالص.

إثر كل تعليق يستدير وينحني نحو المدير الذي يجيب دون كلل بإيماءة من رأسه.

القديسة ماري- ماجور، واحدة من المعابد الرومانية الأربعة. ضريح سيسيليا ماتيلا على طريق آبيا. قوس كونستانتان. الهيكل القومي.

التلاميذ يحيون ظهور صورة الهيكل القومي بالتصفيق الحماسي.

القديس بيير، الهيكل الأعظم لأمنا المقدسة الكنيسة.

فجأة تظهر على الشاشة مؤخرة بيضاء ناصعة لامرأة شبه عارية تجلس فوق كرسي مباعدة ساقيها.

الراهب، ما يزال متأثراً بتحيته الأخيرة للمدير، يحافظ قليلاً على بقايا ابتسامته المتملقة قبل أن ينتبه إلى الصورة الغريبة. يسمره الجزع لحظة.

- أوه... أ... و... هـ!

ينفجر التلاميذ بمبادرة من صبي نحيل أسمر، وفي جو من الفوضى العارمة يشرعون في القفز وقرع الأرض بأقدامهم والزعيق وتبادل النكات.

في هذه الأثناء يحاول الراهب الشاب برعونة انتزاع الصورة المعيبة من الجهاز. وفي صدر القاعة المظلمة ينهال المدير بقبضته فوق الطاولة في ضربة مرعبة.

الراهب وقد استعاد تماسكه يندفع نحو الشاشة باسطاً ذراعيه يحاول تغطية الرؤيا المشينة.

- أغلقوا! أطفِئُوا! أشعلوا! لا تنظروا! لا تنظروا!

- أغلقوا عيونكم! إنه إبليس! من ينظر سيذهب إلى جهنم!

على الشاشة تظهر أخيراً صورة ذئبة الكابيتول البريئة.

ينهار الراهب الشاب راكعاً في حالة هستيرية من تأنيب الضمير. المدير، واقفاً على المنصة، يتناول عصاه الخشبية وينهال بها بعنف شديد فوق الطاولة، يزأر في وجه مثيري الشغب:

- وقوف...!

ثم يأخذ في الإنشاد:

«تولدين حرة بهيجة... أيتها الشمس»... يضبط الإيقاع بيده وقدمه. «تولدين حرة بهيجة... أيتها الشمس».

التلاميذ يرددون: «تولدين حرة بهيجة- أيتها الشمس».

* * *

في غرفة الطعام، الأسرة تتهيأ لتناول الغداء. الأب يتصدر الطاولة وهو لا يزال يحتفظ بقبعته فوق رأسه. على جانبي الطاولة جلس أفراد الأسرة الآخرون، الأم تعقد منديلاً حول عنق طفلتها، يسمع قرع الأجراس.

- الأجراس، صوت الرب، تقول الأم.

الخادمة على عتبة الباب، بين يديها وعاء الحساء، تعلن:

- سيدتي، افتحي الراديو، إنهم ينقلون مباركة البابا.

- احضري الشوربا أيتها الغبية! يجيب الأب بفظاظة.

تضع الخادمة وعاء الحساء وتتابع بحماس:

- إنها بركة البابا، إنه يمنح الغفران، غفران الخطايا المهلكة! الآن، في هذه اللحظة.

تنهض العمة وتهرع لتشغيل الراديو.

- انهضوا يا أولاد! تأمر أبناء أخيها.

الأب، وقد نفد صبره، يصرخ:

- الشوربا، هنا ! أنتم يا أولاد ابقوا في أماكنكم.

الخادمة تضع وعاء الحساء الساخن أمام الأب بينما تعبر الأم عن احتجاجها وتركع، حاملة طفلتها بين ذراعيها، أمام جهاز الراديو الضخم الذي يتربع على عرشه في زاوية الغرفة:

- لكن ياسيرفينو! إنها بركة البابا!

- بركة البابا أضعها في مؤخرتي.

الجدة، جالسة في ركن منعزل، تتدخل بهلع:

- يا للفضيحة! أيها البائس! نهايتك إلى جهنم، سترى! اركعوا يا أولاد!

انهضوا! ارجعوا إلى أماكنكم، وإذا عدتم للنهوض فسأبتلع صحني.

الأب مهتاجاً يتناول صحناً ويطبق عليه أسنانه.

- لا تستمعوا إلى أبيكم، إنه مجنون! اركعوا! اركعوا يا أولاد!

الجميع يركعون. الأب وقد أحس بالإهانة، يستعيد هدوءه، يتلفت حوله، يخنقه الغم.

- آه!... هذا يقتلني...

يتناول وعاء الحساء ويخرج من الغرفة مغتاظاً.

في الراديو، البابا يمنح بركته، والجميع يرسمون علامة الصليب وهم يصلون خافضين رؤوسهم.

* * *

في بهو السينما، الناس يجيئون ويروحون، يتوقفون لتفحص الإعلانات. مدير الصالة يجهد في احتواء جمهرة الناس الذين يتدافعون أمام شباك التذاكر.

أيها السادة! أتوسل إليكم! لا تتدافعوا، الأماكن متوفرة للجميع! لا تتدافعوا! عندنا ثلاث حفلات، عودوا فيما بعد.

خلف شباك التذاكر، تبدو الموظفة وقد فقدت السيطرة.

الباقي!... لقد أعطيتك إياه! ربما تريده مرتين! سيد سافيولي اتصل بالشرطة، قل لهم أن يأتوا ويلقوا نظرة! ماذا... تعرفة مخفضة؟ ابنك طوله متران! نفذت مقاعد البلكون! سيد سافيولي! انتبه ستكسر زجاج الكوة!

تصل العائلة، الأب في مقدمة الركب. الطفل في ثياب البحارة يتفحص الإعلانات حوله، يتوقف الأب أمام شباك التذاكر:

- يا آنسة. ثلاثة مقاعد بالتعرفة الكاملة، طفلان وخادمة... ماذا... الخادمة تدفع تعرفة كاملة؟... هذه جديدة!

- تتجه العائلة نحو مدخل الصالة. يلتفت الطفل ليتأمل صورة لغريتا غاربو.

- اخرسي يا أديل، انتبهي للأولاد! كارميلا أمسكي طرف معطفي! اتبعوني! عفواً! عفواً! لدينا بطاقات!

تدخل العائلة إلى الصالة المعتمة. يلقي الأب نظرة فيما حوله، يظل الجميع ينتظرون قرب الجدار، عيونهم نحو الشاشة حيث تجري أحداث الفيلم الأخيرة... وصيفات زنجيات منهمكات حول بركة صغيرة، يحضرون المراهم ويسكبن حليب الحمارة فوق جسد بوبيه Poppẽe.

- فلترعك الآلهة يا بومبيه Pompẽe ... اقترب.

- لقد جئت أحييك، أ،أ ذاهب.

- مع هذه المستهترة؟ بريشيلا، المسيحية! تضحك بوبيه. أنت تعلم أنني متسامحة.

أفراد الأسرة يتابعون بشغف، رؤوسهم محنية وأفواههم فاغرة.

لكن الانتقام قدر إلهي جذاب... انتبها لنفسيكما

بحركة شهوانية بطيئة تداعب بوبيه جيدها.

على الشاشة تظهر أطلال القناة الرومانية. جنديان يجران بريشيلا.

المسيحية العذراء تحاول التخلص من قبضتيهما الوحشتين.

- لا... لا! الرحمة! أتوسل إليكم دعوني!

يظهر وجه بوبيه المتحجر بلقطة كبيرة، بينما يقود جندي بريشيللا بين يديها.

- إليك المسيحية يا بوبيه السمائية!

في العتمة التي تخترقها حزمة الضوء الساقط من جهاز العرض يسود فجأة هرج ومرج. أناس يقفون، مشاهدون يتبادلون الشتائم يتدافعون لاحتلال المقاعد الشاغرة.

على الشاشة تتابع بوبيه وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة:

- ماذا جرى يا عزيزتي! هل عجز إلهك عن تخليصك من قبضة جنودي؟

- الرحمة!

- قودوها إلى هنا، يأمر أحد الجنود.

العائلة تهجم لاحتلال بعض المقاعد.

- أسرعوا! أديل! ليونينا! أنت اجلس هناك.

- في الصف الثاني يصرخ رجل:

حقيبة يد زوجتي. كانت هنا! نعم يا سيدي، حقيبة زوجتي!

يستدير الأب غاضباً:

اسكتوا! لا تهمنا حقيبتك!

على الشاشة، مصارعان يتنازعان البقاء. يغلب أحدهما ويتهيأ لغرز رمحه المثلث في جسد خصمه. يرفع وجهه نحو المنصة. تلتفت بوبيه ببطء نحو زوجها، الإمبراطور، الذي يشير نحو الأسفل ويحذو حذوه على الفور، المصارع، دون رحمة، يغرز رمحه.

العائلة، مسحورة تنظر بعيون جاحظة وأفواه فاغرة.

بريشيللا واقفة أمام المنصة، بومبيه ينتفض هائجاً. ابتسامة عفيفة تضيء وجه بريشيللا الناعم. بندفع بومبيه إلى وسط الحلبة، ينزع سيفه من غمده وبرميه على الأرض، يرسل نظرة تحدٍ نحو المنصة وهو يتوجه للقاء بريشيللا ويضمها بين ذراعيه.

انفعال في الصالة. العمة تمسح دموعها خلسة.

في الحلبة يتقدم بومبيه وبريشيللا وهما متعانقان بحنان بالغ.

تضيء أنوار الصالة. ينهض الأب وتتبعه العائلة كلها كالعادة.

يندفع لاحتلال مقاعد جديدة دافعاً هذا وذاك:

اخرس، اخرس! عفواً! عفواً! أديل، ليونينا! تعالوا هنا! انتبهوا!

وسط الفوضى السائدة يتلاسن مدير المدرسة مع أحد المشاهدين:

- أنت قليل الأدب، إنسان بذيء ! ألا تعلم مع من تتكلم! أنا مدير، المدير... فاهم؟.

خلفه، المعلمة تشجع مديرها:

- ولك اسكت! لقد رأيت كل شيء. أنت تستقوي على السيد المدير، الأفضل لك أن تتوارى.

ابنته تجذبه من طرف معطفه راجية إياه أن يهدأ:

- بابا، بابا! توقف، ستؤذي نفسك، أرجوك، هدئ نفسك.

تطفأ الأضواء. ينفصل الرجلان على الفور ويجلسان. شارة صوتية صاخبة تعلن بداية الجريدة المصورة. صوت رنان يعلق على الأحداث بلهجة هجومية:

روما، انعقد المجلس في التاسع والعشرين من تشرين الأول في جو مفعم بالحماس.الـ Urbc التف حول قائده معرباً عن إيمانه بالمستقبل المشرق للوطن الإمبراطوري، سيادة الرئيس شيبيون دوكاروليس خضع لامتحان الحلقة الملتهبة وبرهن، بشجاعة فائقة، عن ولائه للفاشية.

على الشاشة نرى عدداً من الشخصيات، وسط الرخام الأبيض الذي يغطي أرجاء الفوروايتاليكو FOROITALLCO يقفزون، وبحركات بهلوانية مفتعلة، من خلال دائرة ملتهبة.

أحد المشاهدين، قصير القامة، حيوي المظهر، يعض مشرب لفافته بين أسنانه، يندفع في تصفيق مسعور محيياً مأثرة دوكاروليس ويعلق ملتفتاً إلى زوجته:

يا له من رجل عظيم!

وحدة من أوبرا باليلا الوطنية تؤدي عرضاً عسكرياً في اللونغومار دونتشي، وهي تسير بخطوة الإوزة تحت سيل من الإعلام. في الخلف تمثال رخامي ضخم لرأس الدونتشي، وعلى منصة يقف أحد القادة البارزين وهو يؤدي التحية الفاشية.

المعلق يتابع:

قام أبناء الذئبة، الباليلا وأعضاء منظمة الشبيبة الإيطالية باستعراض في ليدو روما وهم يرددون أناشيد الثورة. وقد تبع الاستعراض توزيع وجبة طعام خفيفة من الخبز والجبن الوطنيين. هذا وقد حيا الرفيق إيغنازيو رامباتي أبناء الذئبة بخطبة حماسية.

زوجة المتفرج ذي المشرب، وجه ينضح بالشهوانية، وعلى رأسها قبعة ضخمة، وحول عنقها تلتف قطعة من فراء ثعلب أحمر، تلقي نظرة خفية نحو شاب متأنق يجلس بجوارها. عيون الخادمة والطفل الجالس على ركبتي والدته تتركز على المرأة ذات الفرو الأحمر. صوت المعلق يتابع دويّه:

فلورنسا! قصر «بيتي»PITTI تحت شمس الربيع...

الشاب المتغندر يغمز بعينه للمرأة ذات الفراء، وببطء يصلح ربطة عنقه. المرأة بعينين نصف مفتوحتين، وشفتين راعشتين، ترمقه مجدداً بشهوانية. صوت يهمس:

إنها ميسالين، كانت متزوجة من الصيدلي.

* * *

سيارة تتوقف بحذاء البحر. هبات الريح تكنس أوراق الأشجار المتساقطة. في السيارة تتلفت ميسالين حولها ثم تعانق السائق بعنف شديد يجعله ينقلب على ظهره في جوف السيارة، فوق وجهها ينعكس كل فجور شهوانيتها. في الخارج صف من الرجال يبدو ينتظرون ميسالين... تشير إليهم بيدها... ينفجر الرجال في هيجان مسعور بينما تندفع ميسالين بلباس الرومانية الفضفاض في رقصة جنونية. تحت قدميها قرب السيارة ذات السقف المتحرك يرقبها الرجال بثيابهم الرومانية.

* * *

في المقهى، أحد المندوبين التجاريين، رجل أحمر الوجه، يروي مغامراته في روما.

- الجميل في روما أنها كبيرة! لا أحد يعرفك، أنت حر. بإمكانك أن تنتقل هنا وهناك على هواك.

من خلف البار يسأل عامل المقهى:

- والنساء، كيف وجدتهن؟

المندوب التجاري يضع فنجان قهوته على الطاولة، يباعد يديه مجيباً:

- المرأة الرومانية! لها مؤخرة هكذا!

يضحك، بقية الزبائن يشاركونه الضحك.

* * *

حوذي يلتف ببطانية ذات تقطيعات مربعة الشكل، يرتدي جبّة طويلة (كاغولا) وقبعة فوق رأسه، يذرع الرصيف جيئة وذهاباً أمام محطة صغيرة. مجموعة من الأطفال يلعبون بالكرة. يتوقف قطار روما في المحطة. راهبتان تجلسان فوق مقعد صغير. على الرصيف يقف قروي مسمراً تحت مظلته. القطار ينطلق من جديد. الأطفال، وقد اعتلوا حديد السور يرقبونه وهو يبتعد.

* * *

الوصول إلى روما

حمالون ينتظرون المسافرين على طول الرصيف:

- حمال... حمال.

- حمال يا سيدتي!

- أمتعة ! حمال... أمتعة!

- حمال، أيها الشاب؟... حمال!

حمال بدين يضع فوق كتفيه يتناولها من خلال نافذة القطار. شاب ينزل من القطار. ينظر حواليه، يبدو تائهاً، يتبع حمالاً يتجه نحو باب الخروج. الرصيف غاص بأناس يعيشون فرحة اللقاء، يسلمون على بعضهم، يتبادلون القبل بحرارة. يتوقف فريق من الراهبات على الرصيف قرب الشاب، بعض الرهبان جاؤوا لاستقبال أسقف.

رئيس المحطة يدعو الجميع للإسراع.

- هيا! بسرعة، هيا!

صبي ضخم الجثة. يضع قبعة من القش على رأسه، يتحدث مع جندي...

- لا تكن أحمق! اذهب لرؤية والدتك؟

- أوه ! لا عليك، إنني أذهب كل يوم.

فرقة من الجنود يرتدون قبعات كولونيالية، يقتربون وهم ينشدون:

«غرف عارية...»

أمام لوحة دعائية ليانصيب تريبولي، بائع اليانصيب ينادي على بضاعته:

اشتر بطاقاتي! سأجعلك مليونيراً. إنها الأخيرة. إنها الأفضل! دركيان بزيهما الكامل يسيران ببطء، كلٌّ منهما يضع يده على غمد سيفه. حمال، وقد أحنى ظهره تحت ثقل الأمتعة التي يحملها، يحاول شق طريقه.

- انتبه! انتبه! افتحوا الطريق!

الشاب لا يزال يتقدم وسط الزحام. فتاة سمراء جميلة تتلفت حولها وكأنها تبحث عن شخص ما. الشاب يلتفت نحوها في اللحظة التي يقترب منها شخص ويبدأ بمعاكستها:

- مرحباً يا حلوة، ما رأيك بولاعة؟

- لا شكراً، لدي واحدة.

الشاب يتابع طريقه، لكن نفس الشخص يلاحقه.

- حقاً أنت محظوظ. لدي قطعة قماش إنجليزي، ما رأيك!... هل لديك مكان تأوي إليه؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- شارع ألبالونغا.

- عندي غرفة صغيرة جاهزة، ومع فرنسية شابة أيضاً...

- لا شكراً... شكراً، إلى اللقاء.

يتوجه الشاب نحو باب الخروج.

منادون لمختلف الفنادق يدعون المسافرين:

- فندق دراغوني!

- فندق البرتو روما!

- إكسيلزيور!

- بنسيون بارادیزو!

- أورورا!

- فندق بالتزا!

رجل يضع قبعة قش على رأسه، لاهثاً، يمسح عنقه بمنديل، يندفع لملاقاة صديق.

- سيزاري! كيف حالك؟آه... آه كم أنا سعيد برؤيتك!

- وأنا أيضاً يا عزيزي!

* * *

الشاب، واقفاً على درجة الترام، ينقّل أنظاره في المدينة المجهولة، نافورة ساحة إيزيدار، كاتدرائية القديسة ماري- ماجور، بعض الرهبان يستعجلون الخطا فوق سلالمها العريضة.

وسط حشد الوجوه الحمراء المحتقنة المنغلقة في الحافلة يسمع شكوى عامل الترام.

- تلقيت الضربة على رأسي أثناء الخدمة، ولدي شاهدان أيضاً.

طبعاً أستحق التعويض! يومئ بيديه... الدكتور؟ لا أدري تماماً... عندما تتلقى ضربة على الرأس يصبح الذهن مشوشاً...

في ممر الحافلة الغاص بالركاب الواقفين، فتاة سمراء جميلة تلتفت نحو رجل قصير القامة يقف خلفها تماماً، تصرخ وهي تريه حقيبة يدها:

- أترى حقيبتي هذه؟ سأقذفها في وجهك!

- هيه! لماذا تتبلّينني؟... أنت مجنونة!... يتقدم في الممر وهو يتابع احتجاجه. ما الذي دهاها هذه الفتاة؟ حتى لو أردت فلن أصل إلى ارتفاع قامتها.

الشاب يتابع تأمل المدينة. يصل الترام إلى شارع البالونغا، تتوقف شاحنة صغيرة، في داخلها تتدلى قطع من لحوم العجول المذبوحة.

رجل بدين ذو جسد مترهل، عاري الجذع، يغسل إبطيه في ماء نافورة صغيرة. امرأة تخرج هائجة من دكان لحام.

- الكيلو بثمان ليرات! إلى أين نحن سائرون هكذا؟... أتمنّى لو أعرف.

الشاب ينزل من الترام مع عجوز قصير القامة، يحمل حقيبتيه بيديه ويمضي على الرصيف. صبية تقوم بتنظيف سجادة متدلية على نافذتها وهي تغني أغنية لونا مارينارا: «أيها القمر المتلألئ، كم أحب الخروف المشوي، كم أتمنى أن أذوق طعمه...!».

* * *

في مدخل بناية، شاب يسأل:

- أسرة باليتا؟

البوابة تخرج من قمرتها وبيدها تحمل مقلاة.

- الطابق الرابع!... تعود إلى قمرتها. نسمعها تصيح:

- المصعد معطل... آه! دافيد لو أمسكتك.

الشاب يصعد السلم. فتيات صغيرات تلعبن جالسات على درجات السلم، تتناقلن دمية من القماش.

- بلهاء!

- آي.

- تتعمدين إسقاطها دوماً...هيه!

الشاب يبلغ الطابق الرابع، يسأل أحد السكان، وهو رجل سمين يدخن السيجار أمام باب شقته:

- أسرة باليتا من فضلك؟

يشير الرجل إلى الباب بحركة من يده.

- شكراً.

يضع الشاب حقيبته، يرتدي سترته التي كان يحملها فوق كتفيه ويقرع الجرس. بانتظار الإجابة، يقترب من النافذة المطلة على فناء البناء ويتطلع إلى الجدران البائسة التي تحيط بالباحة. يفتح الباب، يطل منه طفل يضع قبعة كولونيالية ويحمل سيفاً خشبياً. يتبعه الشاب متلهياً إلى المدخل، يحاول أن يكلمه.

- إيه! اسمع...

يرى طفلاً ثانياً يركب دراجة ويتأمل الشاب بصمت.

- مرحباً! هلا ناديت أمك؟

الطفل يبتعد في الممر دون أن يجيب، يتبعه الشاب إلى داخل الشقة بخطوات مترددة، وهو يرفع صوته قائلاً:

- بالإذن! ألا يوجد أحد ؟ مدام!

الطفل ذو الدراجة يختفي في قاعة غاصة بالخزائن وصناديق الثياب. من صدر الممر تتقدم امرأة بوجه بشوش. إنها أنطوانيتا، الخادمة. تضع على رأسها منديلاً ولا تتوقف عن مسح يديها بمئزرها. من أعماق الشقة يأتي صوت طفل:

- أنطوانيتا! لقد انتهيت!

- انتظر قليلاً، لدينا ضيوف!

- انتهيت! انتهيت!

- آه، كن عاقلاً.

أنطوانيتا تشق أحد الأبواب، تدفع رأسها عبر فتحته.

- مدام، إنه الشاب، صاحب الرسالة، تعلن بصوت خفيض.

تغلق الباب من جديد وتذهب لملاقاة الشاب الذي يبادرها: «مرحباً» تتفحصه أنطوانيتا للحظة قصيرة ثم تمرر يدها فوق جبينها مبتسمة وتتناول الحقائب من يديه.

- كنت منهمكة في تحضير المعجنات... دعني أساعدك... اتبعنِ من فضلك... من هنا. تتقدم في الممر، يتبعها الشاب، وتتابع حديثها بصوت منخفض... مدام تعبة قليلاً، إنها تعاني من المبيض... تضع الحقائب فوق أحد الصناديق... سأضعها هنا... هكذا ! سأعرفك على البيت... عفواً. تدخل إحدى الغرف يتبعها الشاب، تتوقف على العتبة. تفضل... أرجو أن يكون بالك طويلاً مع الأطفال... إنهم كثيرون جداً هنا.

طفل صغير لا يتجاوز عمره السنة يزعق غاضباً وهو يغوص في بركة من البول. الشاب أصبح داخل الصالة.

- هذه غرفة الطعام... من الطراز الفلورنتي، جميلة، أليس كذلك؟ هذا هو باليتا الابن. إنه يعمل محاسباً هذه السنة.

فتى بسروال داخلي قصير يتمدد على بطنه فوق ديوان وقد شد شعره بشبكة قماشية. ظهره بالغ الحمرة من أثر ضربة شمس.

- من هناك؟

ينهض بتثاقل، يلتفت، ينظر إلى الشاب الذي يقابله بابتسامة يشوبها الارتباك.

- مرحباً...

الفتى يعود إلى الاستلقاء على بطنه متمهلاً وبحذر وعناية فائقين... يصل إلى الأسماع صوت سيدة قادماً من غرفة أخرى، تخاطب الفتى المتمدد:

- آه لو أعلم فقط ما الذي قادك إلى البحر !

- ولماذا، هل هذا ممنوع؟... يجيب الفتى.

- طبعاً، كان لا بد من ذهابك في عز الظهر أليس كذلك؟

- متى إذن؟

- آه، أيها التعيس!

الفتى باليتا يطلق تنهيدة، يستدير، يتقلب ثانية، ويتوصل أخيراً إلى الاستلقاء على ظهره.

الشاب ما يزال يحتفظ بابتسامة يغامر بالقول:

- لقد تعرضت لضربة شمس! هل لاحظت ارتفاع حرارة؟

- قميصك لا بأس به... يغمغم الآخر بصوت أجش.

يبدو منهكاً... يغمض عينيه. تتناول أنطوانينا الطفل الرضيع بين ذراعيها وتحمله إلى غرفة أخرى. تسأل بهمس وهي تغلق الباب:

- هل تخاف الصينيين؟ عندنا واحد هنا يهتم بشؤون الطبخ...تتسل نحو باب مزجّج، تفتحه وتندفع نحو النافذة وهي تصرخ:

«لا أفهم لم لا تفتح النافذة عندما تطبخ أشياء بمثل هذه الرائحة الكريهة؟

رجل صيني ينحني فوق سخانة بترولية صغيرة، يجيب ببضع كلمات غير مفهومة، ثم يتقدم إلى قاعة الطعام حاملاً بيده مقلاة وباحترام بالغ يحيي الساكن الجديد داعياً إياه إلى تذوق طبخته.

- مرحباً!... يقول الشاب.

- بوكاتيني ماتريسياني! أنا طبخت! أنت تأكل ؟.

يعتذر الشاب بلباقة وبشيء من الارتباك.

الصيني يلح.

- طيب جداً!

ينحني عدة مرات. الخادمة تخرج من المطبخ وهي تسد أنفها بيدها وتدفعه كي تمر.

- دعني أخرج، أشعر بالغثيان! توصد الباب خلفها...

بوكاتيني آلا ماتريسيانا... للجرذان، نعم! وتغمز الشاب بعينها.

نسمع امرأة تتذمر في الغرفة المجاورة، تستدير الخادمة وتسأل:

- هل أريه المطبخ أيضاً يا سيدتي!

صوت سيدة المنزل المنتحب يجيب:

- أجل يا عزيزتي دعيه يره! أوه مامّا ميّا! ماذا فعلت للإله الطيب كي يجعلني أتألم هكذا؟

أنطوانيتا تخرج من الغرفة مبتسمة وتدعو الشاب إلى اللحاق بها. كلاهما يمرُّ من جديد أمام فتى المنزل.

- تشجع أمام ضربة الشمس، يقول الشاب.

الطفل ذو الدراجة يتمطى وهو جالس على الديوان. أنطوانيتا والشاب يخرجان من القاعة طفلة صغيرة تجلس على إناء التواليت وتصرخ:

- أنطوانيتا، لقد انتهيت!... لقد انتهيت!

الخادمة تمشي وهي تتهادى، في الممر تستدير وتبتسم للشاب ثم تدخل إلى الحمام.

- ما بك؟ فهمت أنك انتهيت! تنحني وتمسح مؤخرة الطفلة.

ثياب داخلية وسخة منقوعة في حوض الحمام، أنابيب متعددة ومتنوعة تملأ الجدران بزخرفة متشابكة. الشاب يدخل غرفة في نهاية الممر حيث يكتشف طفلة في السادسة أو السابعة من العمر، ذات وجه ماكر تحيطه الضفائر، جالسة أمام طاولة تلتهم صحناً من المعجنات. تسأل من خلال فمها المملوء بالطعام:

- ماذا جلبت لي؟

- لا شيء بعد، ماذا كنت تريدين؟

الصغيرة لا تجيب، بل ترسل تكشيرة إلى صبي صغير يرقبها وهو يلصق وجهه بالزجاج. على نفس الطاولة حيث تجلس الصغيرة هنالك امرأة عجوز تكوي بعض الثياب.

- ما رأيك؟ هل تعتقد أن الحرب ستندلع؟

الطفلة تسأل الشاب بخبث:

- هل رأيت الجدة الصغيرة؟

- لا، لكنني جئت لهذا. أين هي؟

تنهض الصغيرة وتعدو نحو الدرج.

- تعال معي، أتدري، إنها صغيرة أكثر من الأطفال!

يتبعها الشاب وقد أثارت فضوله، الصغيرة تدفع باباً أعلى الدرج، وتأخذ في النطيط وهي تغني:

- يا جدتي الصغيرة ! انظري من هناك! انظري من هناك!

عجوز صغيرة الجسم، جميلة وبالغة النظافة تجلس في مقعد كبير وهي ترتدي الأسود.

- السلام عليك، أتمنى لك صحة جيدة!

- شكراً لك أيضاً.

الطفلة تضبط إيقاع قفزها مع أغنيتها.

- أنت، هل لديك جدة مثل هذه؟

* * *

في غرفة صغيرة جداً، مثلثة الشكل، هناك فراش مطوي فوق السرير. أغطية السرير منشورة على النافذة. الخادمة منهمكة في العمل وهي تغني:

(يا زهور، أيتها الزهور الصغيرة، الحب هو السعادة...)

الطفلة ذات النظارة تتسلى بمجفف للشعر. يرقبهما الشاب وهو واقف على العتبة.

- وهنا؟... ما هي هذه الغرفة؟... يسأل أنطوانيتا.

- إنها غرفتي.

- إنها مشمسة.

يقترب رجل من خلفه وهو يحمل فنجاناً من القهوة. يبدو أنيقاً ببدلة صيفية بيضاء وقبعة خفيفة من القش ونظارات سوداء.

- مرحباً!

- مرحباً!

وبلهجة تفخيمية يقدم نفسه:

- أنا لاندي، ماركو لاندي... ألم تتعرف علي؟

- بلى... بلى، أعتقد ذلك.

- بداياتي كانت مع كاميريني، وعملت كثيراً مع جينارو ريغيللي. أغلب الأحيان ألعب دور الشاب المنغمس في اللذات. أنا من مثل دور كبير الخدم في «اختلاجات».

- آه! هكذا..

- لكنك صغير السن ولا يمكن أن تتذكر...

الممثل ينزل الدرجات القليلة التي تفصله عن المطبخ، يتبعه الشاب.

- اسمع، أنت صحفي أليس كذلك؟

- نعم، لكنني الآن متوقف عن العمل.

الممثل يغسل يديه في المجلى.

- إذا رغبت أعطيك مقابلة صحفية.

يستدير نحو المطبخ.

- هيه يا جماعة، لدينا صحفي هنا!.

ابنة سيدة المنزل، فتاة بدينة سمراء، تجلس أمام حوض الغسيل تجفف شعرها الأسود الطويل.

- أعتقد أنك مدعو إلى هذا المنزل أليس كذلك؟... يقول الممثل.

الشاب يومئ برأسه لكل الموجودين داخل المطبخ.

- تحيتي للجميع، صحة!

رجل يشرب الحساء على طاولة كبيرة في وسط الغرفة. إنه زوج المعلمة. يرفع قبعته تحية للضيف دون أن يتوقف عن الأكل، بين قدميه قط يستمتع ببقايا الطعام. تحت الطاولة يزحف طفل صغير عاري الوسط. يدخل المطبخ رجل يرتدي ثوب الحمام، ينزع قبعته التي كانت تغطي رأسه ويضعها فوق الطاولة وهو يردد بلهجة تفخيمية مقطعاً من خطبة الدوتشي.

- «لا يمكنني أن أصدق أن شعباً مقداماً مثل شعب بريطانيا، الذي لم يسبق أن اختلف مع الشعب الإيطالي، يمكنه أن يدفع بأوروبا إلى الهاوية في سبيل الدفاع عن بلد إفريقي...

- التشابه مذهب، يسر الممثل إلى الشاب.

الرجل يتابع هذيانه دون أن يثير اهتمام أحد. سيد المنزل يتابع طعامه، وابنته تستمرُّ في تجفيف شعرها.

- ... برابرة، ضد هذا الشعب المليء بالأبطال والفنانين والشعراء والقديسين والبحارة الشجعان...

الشاب يكتف ذراعيه ويستمع ضاحكاً متسلياً.

- ... إذا كان البحر المتوسط بالنسبة لإنجلترا طريقاً للعبور...

- لوكريزيا! تنادي سيدة المنزل.

- ماذا تريدين يا أماه!

- أرسلي لي الشاب، أريد رؤيته.

- أنطوانيتا، ماما تريد رؤية الشاب!.

الخادمة تقترب منه وترافقه نحو غرفة سيدة المنزل، يتبعهما الطفلان. تتوقف أمام الباب المنفرج قليلاً.

- هل يمكننا الدخول؟

- هل يمكننا الدخول؟... يردد الطفلان بلهجة هادئة.

تشير الخادمة إلى سيدتها بحركة تدل على وجود الشاب.

- إيه. دعيه يدخل!

فوق سرير كبير، نرى سيدة المنزل، وهي امرأة ضخمة ذات سمنة لا توصف، ترخي جسدها فوق عدد من الوسائد هامدة دون حراك، وبدون أن تحرك رأسها ترسل بصرها نحو الباب وتقول بصوت متعب:

- كم هو فتي، كم هو أنيق!... سترى، ستكون مسروراً عندنا... والدتك كتبت لي، المسكينة... هل عرفته على البيت يا أنطوانيتا؟

- طبعاً وقد أعجبه كثيراً.

- حسناً، يمكنك الانصراف. المرأة الهائلة تغلق عينيها وقد هدها التعب، ثم تفتحهما من جديد وتضيف بلهجة قاسية وبحدة مفاجئة:

- اسمع، أنت، انظر إلي جيداً... هذا المنزل يجب ألا يدنس أنت تفهمني أليس كذلك؟

أنطوانيت والشاب يتبادلان النظرات ويبتسمان.

- نحن أناس كما يجب، نحترم الآخرين، ونريد أن نكون موضع احترام... أنا لا أذهب إليكم وأتصرف بقذارة، إذن فلنتفق، لنعش بسلام، كل يهتم بشؤونه، ولا يتدخل فيما لا يعنيه.

فتى المنزل يدخل غرفة والدته.

- حتى متى يا ماما... ألن نأكل اليوم؟ يستلقي بجانبها. سأبقى قليلاً معك ماما.

- أو لا لا ! كم آذيت نفسك في البحر! ألم يكن من الأفضل لك البقاء في المنزل؟

يصل الشاب أخيراً إلى غرفته. أنطوانيتا تتأمله وهو يرتب ثيابه في الخزانة، تبدو كأنها تنتظر شيئاً.

- يمكنني أن أتدبر أموري وحدي، شكراً.

الخادمة تضحك بدلال وتخرج من الغرفة. يتابع الشاب ترتيب أشيائه. عبر النافذة المفتوحة يسمع صوت صرير. الشاب يقترب وينظر.

* * *

الشاب يخرج من المنزل وقد خيم الظلام. الأرصفة تغص بكراسي وطاولات المطاعم. الرومانيون جالسون يستمتعون برطوبة الليل. أطفال يلعبون بالكرة. إنه وقت العشاء، وها هي طاولات أحد المطاعم قد ملأت الطريق حتى حدود سكة الترام. الزبائن، وتغلب عليهم البدانة والبهجة والصخب والشراسة والشراهة، هم الممثلون التقليديون للعالم الروماني البرجوازي الصغير والشعبي.

يتكلمون في آن واحد وبصوت عال، يضحكون، يتبادلون المزاح، يغنون بعضهم أحضر طعامه معه.

- لقد أحضرنا دجاجتين محمرتين من المنزل... آه، أيها الصغير اللعين، هل تريد أن أضعك في الفرن أنت أيضاً؟.

الأطفال الذين يلعبون الكرة ينسلون بين الطاولات، امرأة لا تكاد تجلس حتى تصرخ في وجههم بسخط.

- غير معقول! كل مساء تصنعون هذا الكرنفال.

العائلة باليتا بأكملها تجلس إلى إحدى الطاولات، الفتى يميل ويصرخ في أحدهم:

- ثم سنذهب لنأكل في أوستي!

خادم المطعم يدخل في مشادة مع بعض الزبائن الذين يستعجلون طلباتهم.

- إيه! دعوني ألتقط أنفاسي قليلاً!

- ثم من أين أحضرت هذه الدجاجة؟

- لا تحتد هكذا وإلا سأريك!

- لقد أحضرت لي نفس الدجاجة التي أرجعتك بها قبل قليل.

- هل تعتقد أنني أبله تماماً؟ سأرميها في وجهك. سأريك.

- تعال! تعال أيها المخبول.

شاب يلف شعره في شبكة، ينهض ويصرخ نحو نافذة في الجانب الآخر من الشارع:

- إيه، فيرنا! نحن في انتظارك هنا!

معلمة المطعم، امرأة سمراء بدينة، تروّح عن نفسها وتتصنع هيئة امرأة راقية. زوجها يتنقل بين الطاولات والفوطة في يده.

- ماذا تقول؟ ليس لدينا فواكه؟ أما رأيت هذا المشمش! من لا يتمنى أن يمتلك مثله في سرواله!

الشاب يقترب متردداً لا يعلم إذا كان سيجلس أم لا. يلمحه زوج سيدة المنزل، ينهض ويدعوه بمودة بالغة للجلوس إلى طاولة العائلة.

- اسمع، تعال معنا... ألست من العائلة؟.

معلمة المطعم تقترب من الشاب الذي ما يزال يبدو متردداً.

- ما رأيك أن تتفضل هنا مع أصدقائي...الشاب وقد أخذه الارتباك، ينقل نظره بين المرأة البدينة وزوج سيدة المنزل الذي دعاه.

- ... تعلمين... بالنسبة لي... لكنني مستأجر عنده، ربما كان...

معلمة المطعم تحسم تردد الشاب، تدفعه إلى طاولة يجلس إليها رجل وامرأة وطفلتاهما...

- هيا !... هيا! كما يقول المثل، من يأكل وحيداً يحمله الشيطان!

خادم يقرأ لائحة الطعام.

- لدينا من جميع الأصناف، والخدمة سريعة، سباغيتي بالصدف؟

- هـ... ي... م! أخاف من الأصداف!... ثم ماذا لديكم أيضاً؟..

- بوكاتيني آلاماتر يجانا، كانوليتشي بالجبنة، بينّي آلاأرابياتا، معكرونة، يتابع الخادم.

- لماذا لا تطلب البينّي آلاأرابياتا؟

- دعيني آكل ما أريد.

- كاتسيتي دانجيلو بمرقة البندورة...

- ما رأيك؟... ياه!

المرأة توجه تكشيرة ارتياب لزوجها.

- خذي الكانوليتشي مدام جولا.

- أكلت منه على الغداء، لن آخذ كانوليتشي من جديد... ماذا لديكم غيرها؟

- لدينا إذن الريغاتوني بسمك الأنشوا، والسكيافوني بالنورسينا.

إحدى الطفلتين تمضغ علكتها دون مبالاة وهي جالسة على طرف الطاولة.

- ابصقي هذه العلكة فوراً. حان وقت الطعام الآن، تصرخ الأم بلهجة توبيخية، اجلسا هادئتين أنتما كلتاكما!

معلمة المطعم تعدد للشاب مختلف الأطباق.

المرأة ما تزال مترددة.

- ما رأيك لو أخذنا السكيافوني؟

- فليكن، لنحاول.

كل الأطباق الواردة في لائحة الطعام هي من المعجنات المجهزة بطرق مختلفة.

- أنا سآخذ صحناً صغيراً... لقد كنت مريضاً هذه الليلة.

معلمة المطعم تتابع:

- أمي هي التي أعدت الطعام اليوم، وهي التي جهزت البابايانا.

- ولكن ما هي البابايانا؟

- إنها جزء من ضرع البقرة، مليء بالحليب! ريمو قم على خدمة السيد الشاب بعناية هيه؟

- اطمئني!

معلم المطعم منهمك أمام طبق ضخم من الحلزون المطبوخ. يجهز صحوناً مليئة ويناولها للخادم.

- كلوا! كلوا! انظروا إلى هذه الحلزونات، بالله عليكم ألا تشبه الحمامات.

امرأة تنادي:

- جيجيتو، والموز متى سيأتي!

- آسف جداً يا مدام، لقد نفد الموز، ما بقي عندي سوى واحدة.

- لا بأس، احضرها لي.

المرأة بدينة تحمل مهداً صغيراً صنع من الخشب الصفصاف تضعه على كرسي، ثم تذهب للجلوس قرب صديقتها وزوجها، ينهض الرجل ويقترب من المهد.

- إنها ابنتك من لالو! أليس كذلك؟

- وممن تريدها أن تكون إذن؟... من الخوري؟

- آه، إنها كوالدها تماماً! تأكل وتصرخ!

- كم هي لطيفة، يا لخديها، كأنهما ردفان.

- ... لقد حلمت بالخالة، جيوديتا قلت لها في الحلم: تاتا أخبريني عن الأرقام الرابحة!

على إحدى الطاولات، يلتهم الزبائن طعامهم بشراهة وهم يقبلون على تلال من السباغيتي.

- لقد طبخت البيروكلي بالنعنع، لذيذ جداً!

امرأة تقود طفلها بين الطاولات تدربه على المشي. عجوز تدمدم بأغنية. كهل يتحدث إلى آخر.

- يا له من مطعم! اسمه «على الرأس المفلوق» صدقني، هناك لا يقدمون طعام خنازير!

أحدهم، بجذع عار، يتمتم شيئاً ما لفتاة تدير له ظهرها.

- اذهب إلى الجحيم!... جاء يقول هذا لي أنا! أنا الذي دفنت اثنين للتو! آه! تمنيت فقط لو أنهم تركوني أدركه... لقد انتزعوه من بين يدي!

خادم يضع طبقاً من الحلزون وسط الطاولة.

- ها هو الحلزون.

امرأة شابة تخرج من المطعم وبين يديها رضيع، تجلس قرب رجل في نحو الخمسين من عمره.

- لقد تقيأ كل شيء، الصغير المسكين! قلت لك ألا تطعمه من الكرشة يا سيدها ميلكار، لقد استمرت حرارته حتى الصباح.

- هذا ليس خطيراً، ما رأيك بقليل من الحلزون؟

حافلة ترام تقبل من صدر الشارع، وتمر قريباً جداً من المطعم تكاد تلامس الطاولات، ضجيجها يغطي أطرافاً من الحديث.

- وماذا بعد؟ لقد ارتبطت بفتاة تصغرني بثلاثين عاماً، نعم، وما دخلك أنت في هذه؟ أجابني: إنك تصلح لأن تكون جداً لها! فليكن! جدي أنا لم يقصّر مع كل فتياته الصغيرات!

صحيح، لكنه انتهى عوداً يابساً!

- وأنا كذلك أنتهي يابساً!

مغنية وعازفان يتقدمون نحو المطعم. المرأة تغني «شيتشي فورما جيو». تضع قبعة القش الكانوتيية المعروفة على طريقة نينو تارانتو.

على إحدى الطاولات، أحدهم يصرخ محتجاً:

- ناولوها شيئاً تشربه ولتخرس قليلاً!

المغنية تتقبل كأس النبيذ وترفعه محيية:

- بصحتكم!

- اشربي! بالله عليك اشربي!

- امرأة مسكينة تستجدي وهي تدور بين الطاولات. رجل يغمغم منزعجاً وفمه ممتلئ.

- ألا يمكننا تناول طعامنا بهدوء!

امرأة شابة تتكئ إلى شرفتها في الجانب الآخر من الشارع، تنظر نحو المطعم. الشاب ذو الشبكة فوق الشعر يناديها من جديد.

- أوه! فيرنا! انزلي! هلا أوقفت مهزلتك هذه، هيه؟

المرأة المتكئة تدير رأسها دون اكتراث.

هيا انزلي!

عجوز هزيل قصير القامة ذو لحية بيضاء وطربوش على الرأس، ينظر نحو الشرفة. المرأة لا تجيب.

الشاب ذو الشبكة يتوجه بالكلام إلى فتاة صغيرة جالسة بجانبه.

- اذهبي قولي لأختك إذا لم تأت فسأذهب أنا لإحضارها... هيا اركضي!

الفتاة الصغيرة تبتعد.

على طاولة الشاب، يرش الخادم جبناً مبروشاً فوق صحون الريغاتوني.

المرأة تحتج.

- لقد طلبت صحناً صغيراً، إنكم تبالغون كثيراً.

- هس! هس! ستزعزعين الجدران بصراخك! مدام جولا. خذ يا صغيري، كلوا، صحة!

الخادم يبتعد. من حول الطاولة يجري تبادل المجاملات، الجميع يبدؤون الطعام.

- صحة.

- شكراً. لكم أيضاً.

- شكراً جزيلاً.

الفتاة الصغيرة ذات الجدائل، وهي تتضور جوعاً، تهجم على صحنها. والدتها تؤنبها.

- ستختنقين! انتبهي! لا أحد ينازعك طعامك! ثم تستدير نحو زوجها قائلة: أشعر أنني لست على ما يرام، أحس بمعدتي ثقيلة منذ صباح الأمس...

الزوج يطلب إلى الشاب:

- قل لي... هل أنت من لاتيوم؟

- لماذا؟

- لأنني أنا من لاتيوم، أيضاً ستقول لي ولماذا؟

الفتاة الصغيرة تعود برفقة شقيقتها.

- سيلفانو، سيلفانو، ها هي لقد أحضرتها لك.

المرأة الشابة تقترب متعالية وهي متجهمة الوجه، الشاب الأسمر يرمقها بسخرية.

- أخيراً، جاءت الملكة!

المغنية تتابع «حفلتها» وهي تلوح بقبعتها الكانوتيية.

الشاب الأسمر يستمر في استثارة صديقته التي تظل غير مكترثة.

- بالله ماذا تريدين؟... ماذا تريدين؟ يقدم لها حبة عنب. هيا! خذي فلنتصالح!

- سأغوط عليك صلحاً، سترى!

- هيا افتحي فمك الصغير، هيا افتحيه!

تفتح المرأة فمها، وبدلاً من أن يطعمها حبة عنب يدفع الشاب إصبعه بين أسنانها، يضحك.

- يا لك من حمقاء.

- بل أنت الأحمق.

- أنا إذن الأحمق! يضحك.

- أنتما أحمقان معاً! تستنتج الفتاة الصغيرة.

- حسناً إذن لقد خلقنا لنتفاهم معاً! الجميع ينفجرون بالضحك.

- البراءة هي التي تكلمت!

معلم المطعم يقترب من إحدى الطاولات وبيده قطعة من اللحم.

- هل قلت إِنها ليست جيدة؟

الزبون يجيب:

- هذه ليست نفس القطعة التي أحضرتها لنا. تكلمي أنت يا أديل!

- آه، لا! هذه ليست نفس القطعة.

- كيف ذلك ليست نفسها؟!

زوجة المعلم تتدخل فجأة.

- بالله توقف! ألا ترى أنهما لا يفقهان شيئاً بالطعام!

لكن المجادلة تستمر.

- إنني أحضرها بنفسي من المسلخ، ثُمَّ اذهبا للأكل في مكان آخر! هذا يكفي الآن!

- لقد رأيت أنها لم تكن نفسها، أنا نظرتي لا تخيب.

المعلم يبتعد حانقاً، المعلمة تضع طبقاً من الحلزون أمام الشاب.

- ينبغي أن تتذوقه، إنه اختصاص المحل! سأريك طريقة أكله، انظر!

بمساعدة إبرة صغيرة تقوم المرأة باستخراج الحلزون من قوقعته، وتحمله إلى فمها. ترسم على وجهها عاملات الاستحسان، وبلهجة المرأة الواثقة المتعالية:

- إليك الإبرة الصغيرة... آه! كم هي لذيذة!

الشاب شوكته بالمرأة تحت أبصار جليسته التي يبدو عليها عدم الرضا. يتناول شوكته، ويستخرج حلزوناً من قوقعته، يرقبه بتردد ثم يعقد العزم على التهامه. جارته تسّر إليه بلهجة تحذيرية:

- آه - أنا لا آكل الحلزون أبداً في المطاعم، آكله عندما أحضره بيدي فقط، إنني أنقعه أربعة أيام، فيصبح لذيذاً، (يصدر عنها صوت قبلة) لكن هكذا... أبداً.

الشاب يمضغ وعلائم الحيرة على وجهه.

لا تصغ إلى زوجتي، هل تعلم ماذا يقولون في روما؟ مثلما تأكل ستغوط!

- أجل، لكن بئس ما يغوطون! عذراً، هيه...؟

الصغيرة ذات الجدائل تصعد فوق كرسيها، وتأخذ في الغناء بصوت حاد وهي تستدير نحو الزبائن:

ترالالا أوساخ بالأطنان

فلتمت بغيظك، أنت وشقيقك

ترالالا أوساخ في المدرسة

فلتمت بغيظك في عربتك

ترالالا أوساخ في المطبخ

فلتمت بغيظك، أنت وابنة عمك.

ترالالا أوساخ بقفازين

فلتموتوا غيظاً كلكم

أهلها تبدو عليهم علائم الابتهاج.

- والله لقد جُنّت: يقول الأب ضاحكاً. ما الذي تقوله ابنة الأحمق هذه!

أنت التي علمتها هذا أليس كذلك؟

- بل أنت الذي علمتها أيها الخنزير!

- ماذا علمتها... لم أعلمها شيئاً على الإطلاق!

الصغيرة تبدأ مطلع لأغنية ثانية.

- ... عين بينكيو المتكبرة...

على طاولة العائلة باليتا، يستدير الأب نحو أحد المغنين.

- أعطني نغمة اللا.

العازف يعطي النغمات الأولى من جملة موسيقية معروفة، بينما ينطلق الأب في الغناء:

يا زهر السوسن...

بمثل قبحك لا يوجد سوى واحد.

لكن سكرانَ مثلك لا يوجد سواك...

يدنو معلم المطعم ويدعو الجميع إلى الغناء معه.

- هيا، غنوا معي!

تمر حافلة ترافقها ضجة شديدة بينما يشرع الجميع في الغناء وهم يتبادلون الأنخاب، معلم المطعم ينتقل بين الطاولات. راهب دومينيكاني يطلب الصدقة. زبون يحتج.

- ثمَّ، هل ستحضر لنا تلك الزجاجة أخيراً؟

- توسكاتو، أحضر مشروباً لهذا الـ... الحساب؟ ولماذا تريد الحساب؟ سنحاسب مساء غد؟ أستحلفكم بالله! كلوا، كلوا!

- صدقة... من أجل أيتام الدير... حسنة للأيتام...

- لقد سبق وأعطينا!

- لا أملك فراطة...

معلم المطعم ينتزع طبقاً يتصاعد منه البخار من بين يدي الخادم.

أعطني هذا، سأحمله بنفسي،... ويضعه أمام الشاب. هيا التهم لي هذا كله.

* * *

في وقت متأخر من الليل. شارع ألباغونا مقفر تماماً. الكراسي مقلوبة فوق الطاولات أمام المطعم المغلق. كلاب شاردة في طلب القوت. عاملان يصلحان سكة الترام باستخدام آلة اللحام. وهج الملحمة ينعكس على الأبنية، يضيء الواجهات والمحلات التجارية. في نافذة أحد الأبنية، امرأة تروّح على نفسها بجريدة مطوية.

* * *

هناك في البعيد، في روما الغافية، تنتصب بازيليك سان جان، ضخمة خرساء.

قطيع من الخراف، راع برفقة كلابه الضخمة يمرون في الفناء.

باب سان - سيباستيانو، ضريح شيشيليا ميتيلا. مصابيح سيارة تضيء، عبر الضباب، أجزاء من الآثار هنا وهناك في الحقول، على ضوء المصابيح تظهر امرأة ضخمة هناك في الحقل ليس بعيداً عن الطريق: مومس، وجهها مطلي بالمساحيق، ترتدي ثوباً أحمر وقد رمت شالاً أسود كبيراً فوق كتفيها. تبدو كنصب لذكرى الأموات، ساكنة، أمومية، موحشة.

* * *

الطريق المتحلّق

سيارات تتوقف أمام كوة الجباية لرسم الدخول إلى المتحلق. موظف يستمع إلى النقل المباشر لمباراة بكرة القدم، وقد ألصق أذنه بجهاز الترانزستوار.

- سغارائي يهاجم! برافو!

دون أن يتخلى عن الترانزستور، يثقب البطاقة التي يمدها إليه أحد فنيي فريق فيلليني. «الشيمان» LE CHAPMAN، ناقلة ضخمة تحمل معدات التصوير الخارجي مع أجهزتها المعقدة، تمر أمام عيني الموظف الدهشتين.

- ما الذي ينوي عمله هؤلاء؟.

في مكان آخر، تتوقف سيارة بجوار الحاجز المعدني. يترجل منها فيلليني وفتاة السكربيت ومدير التصوير. مدير التصوير يعاين السماء قبل أن يتوجه للجلوس في مقطورة عربة التصوير مع فتاة السكربيت.

فيلليني قلقاً:

- بينو، هل ستسير الأمور كما ينبغي؟

- سنكون جاهزين حالاً.

- أسرعوا إنها توشك أن تمطر.

يتم تثبيت قطعة من البلاستيك الشفاف على عدسة الكاميرا. مازيني، المصور، يحرك الذراع الطويل الذي يحمل الكاميرا. الشيبمان وعلابة تصوير أخرى تدخلان المتحلق. المطر أخذ ينهمر كثيفاً متوالياً.

عدد من المومسات ينتظرن وقوفاً تحت المظلات الواقية. شاب مخنث، أشقر يرتدي ثياباً سوداء يتوجه إلى الفريق.

- ماذا تريدون؟ انظروا كل هذا!...

المصورون يبدؤون التصوير.

حصان أبيض يعدو سريعاً، وحيداً وسط حشد السيارات. عربة بريد قديمة ذات لوحة تحمل رقم نابولي تجتاز عربة التصوير بصخب شديد. إنها مليئة بمشجعي فريق نابولي لكرة القدم. على هيكلها الجانبي تمتد لافتة كتب عليها: (نابولي إلى الأمام) سائق سيارة فيات ٥٠٠ يثير المشجعين وهو يحرك يديه نحوهم بحركات فاحشة.

- يا مساكين، سترون ماذا سنضع في مؤخراتكم!

مشجعو نابولي يرفعون رايات فريقهم ويجيبون بنفس الأسلوب الفاحش.

ثلاثة من الهيبيين يطلبون الدفء قرب منقل صغير. من داخل السيارة، وعبر مكبر للصوت يحمله في يده، يصدر فيلليني توجيهاته.

- هل تسمعني؟ أصعد بالرافعة الآن، أعلى ما يمكنك!

السيارة تمر وسط بركة ماء فاترة حزمة واسعة من الماء والوحل على سماء ممطرة تلوح هياكل عمارات قيد البناء.

فيلليني يتابع إصدار توجيهاته.

- بارتوتشي! قل لبينو أريد زوم على الإسفلت... في العادة يكون مليئاً بالقطط والكلاب المدهوسة. اليوم لا ترى شيئاً. هل التقط شيئاً؟.

على حافة الطريق، مسافرون بالأوتوستوب، يريدون الذهاب إلى فلورنسا، إلى نابولي... الليل يرخي سدوله، على القاطرة تضيء المصابيح الكاشفة.

- ناولني مسدس الأسهم النارية. يطلب مدير التصوير.

فتاة السكريبت تناوله المسدس.

- إنه معبأ.

مدير التصوير ينهض، ويطلق سهماً نارياً نحو السماء. الشهب النارية تتساقط، تعمي الأبصار عبر العتمة الكثيفة، تضيء جوانب المتحلق بأضواء سحرية، آثار رومانية غريبة، هضبة مغطاة بالشجيرات. فتاة السكريبت تطلق

سهماً ثانياً: وسط بقعة أرض عارية نلمح مدخلاً خفياً لكهف غريب. سيارة فيلليني تتابع سيرها وأنوارها مطفأة.

- أطلقوا سهماً آخر نحو الجانب الآخر أيضاً. هل أنت واثق أنها تعطي شيئاً؟

اثنان من شرطة المرور يجتازان عربة فيلليني وهما يطلقان صفارتي دراجتيهما الناريتين. فوق الناقلة تشير فتاة السكربيت بإصبعها إلى شيء ما.

انظروا هناك! حريق!.

وفعلاً، هناك حادث على مسافة قريبة! السيارات تتقدم ببطء. شاحنة ضخمة كانت تنقل شحنة من العجول انقلبت وسط الطريق. رجال الشرطة ينظمون حركة السيارات. عجول مدماة تنطرح فوق الإسفلت المبلل. السائقان يتجادلان. رجل يتحمس، يهز ذراعيه آملاً تسريع تقدم السيارات.

هيا! هيا! عجلوا!

يحاول رجال المطافئ إخماد السنة اللهب التي تمكنت من الشاحنة. المصوران يتابعان التصوير وقد انحنيا فوق رافعة الكاميرا المعلقة وسط أضواء الكاشفات الساطعة!

تحت المطر الغزيز تسمع، من قلب روما، أصداء عويل أبواق السيارات الرتيبة المتوالية. الركاب ينتظرون، سجناء داخل سياراتهم: امرأة تسوي ماكياجها... رجل يقضم أظافره بعصبية... رجلا شرطة يسوقان شاباً إلى عربة الشرطة. موكب من المتظاهرين الشباب يحملون اللافتات.

الرأسماليون! البراجوازيون! نهايتكم وشيكة!

اثنتان من سيارات التشريفات الكبيرة السوداء، تحملان لوحة الفاتيكان تمران ببطء: كاردينال عجوز يرافق ديبلوماسيين صينيين.

كتلة الناقلة الضخمة تبرز وسط مستنقع السيارات الحبيسة تحت المطر. بين الحين والآخر يضيء البرق هذه الرؤيا المدوِّخة.

فيلا بورغيزي

طفل يلعب بالكرة وسط مرج أخضر. يصل باص من السياج إلى ساحة سيين SIENNE. خلف الزجاج، بضع عشرات من عمر متقدم يتضاحكن، يصرخن بغبطة بالغة. يتحدثن في آن واحد بضجة تكاد تطغى على صوت الدليل.

- نحن الآن في ساحة السيينا الجميلة التي يذكرنا اسمها بعائلة البورغيز التي هي في الأصل من سيينا، وقدمت إلى روما في النصف الثاني من القرن السادس عشر. كان مضمار السباق يستخدم[٣].

إحدى السائحات تسر إلى صديقتها:

- انظري... هناك طائرة قرب الشجرة... هذا صحيح لقد قابلته[٣].

الصديقة تنفجر بالضحك، داخل الباص، تتهيأ الأمريكيات للنزول.

- غلادي، أعطني الكاميرا... الكاميرا! أريد أن ألتقط صورة عبر النافذة! [٣].

الدليل يتابع مونولوجه:

- ... منذ ولادتها، من أجل سباق الخيل، والمسابقات...

- جورجوس! من الذي يعيش هنا، الميجور؟ ما اسم هذا المكان؟[٣].

- ... وغيرها من التظاهرات المختلفة، من بينها مسابقات فرقة الكارابينييه. في مواجهتنا، ساحة صغيرة نسبت خطأ[٣]....

فتى أسمر يقترب من مجموعة السائحات اللواتي يتبادلن التقاط الصور التذكارية في الساحة.

- انتظرن، أريد أن التقط لكنّ صورة جماعية![٣].

- سألتقط صورة لك أولاً [٣].

إحدى الأميريكيات تلتفت نحو الفتى الذي يقابلها بابتسامة وهو ينزع نظارته الشمسية. تبادله الابتسامة وهي تحاول تجهيز آلة التصوير.

- تريدين صورة[٣]؟ سآخذها لك.

السائحة تقبل عرض الفتى وتناوله الكاميرا.

- أوه! شكراً[٣].

الفتى الروماني يردد كلمات المديح للأميريكية.

- أنت امرأة جميلة... ستكون صورة جميلة.

المرأة تستعد للتصوير.

- هيا... لا تتحركي... ابتسمي... ابتسمي...

تبتسم.

- هل تحبين روما[٣] ؟.

- أوه؟ إنها جميلة جداً! ومثيرة جداً[٣] !.

- هل تريدين صورة أخرى؟

* * *

فتاة السكريبت برفقة أحد المصورين معلقين بين السماء والأرض في رافعة عالية تحمل الكاميرا، يقومان بتصوير لقطات لفيلا بورغيزي...

- آه! هذا رائع! من هنا نرى المدينة بأكملها، الساحات، الشوارع، الناس وهم يسعون إلى عملهم.

مجموعة من الفضوليين خلف حاجز من الحبال يرقبون الفنيين أثناء عملهم. أحدهم يعلق بسخرية على ملاحظة فتاة السكريبت.

- إذا رأينا أناساً يعملون، فهذه حتماً ليست روما!

- ولماذا تبقى هنا أنت؟ يسأله أحد الفنيين.

- كلما أمعنت النظر يتهيأ لك أنها مدينة أخرى!

- أسمع فكرتهم عن الرومانيين! إنهم ينضجون عرقاً ودماً من الصباح حتى المساء...

محام روماني كهل، صديق لفيلليني، يتحاور مع المخرج.

- أهذه روما إذن؟ كلهم مجانين، إنهم جميعاً مجانين! الجميع يركضون، الجميع يتزاحمون، الناس تغيروا! والرومانيون اختفوا! لم يعد هناك سوى هيبيين برائحة كريهة، وطلاب لا يدرسون، ومخنثين، وحشاشين من كل الأجناس!...

الفنيون يتابعون التصوير.

بينو، قل لي ماذا ترى! ما الذي تلتقطه عدستك الآن؟

لا أزال مع القبة بعدسة الـ ١٥٠، هل أغيرها؟

ابق مع الـ ١٥٠ وافتح شيئاً فشيئاً في بانوراميك من القبة حتى الكوليزي!... حاول أن تلتقط كل القباب، وكل أبراج الكنائس أثناء البانوراميك!

- أبراج الكنائس، إنها كثيرة!

المحامي يتابع...

- إنها غلطتنا. لقد خنّا روما، طلنا! ومع ذلك، أنا واثق بأننا لو ذهبنا في طلبها، بحب...

مجموعة من الطلاب يقتربون، أحدهم يخاطب المصور:

- لا تريد تعطيلكم، هل تمانعون في أن نتحدث قليلاً؟

- ياه! لا أدري، مع من تريدون التحدث؟

ويتابع المحامي باندفاع.

- فسيكون بإمكاننا أن نجعلها من جديد، أن نحس من جديد دغدغة البونتينو، أن نسمع حفيف الأشجار: أنا هنا، هذا أنا، إني أحبك، لكن لأنت لا تحب روما... أبداً، لأنك تعلم جيداً أن فيلمك هذا سيعرض في دول أجنبية... وإذا وضعت فيه كل هؤلاء المخنثين، كل تلك المومسات...

- بينو! حاول أن تأخذ زوماً على البيوت من الداخل، على السقوف والشرفات... ماذا ترى؟ بالله قللي ماذا ترى؟

- كيف ماذا أرى؟ أرى ما أريد رؤيته! ماذا تريدني أن أرى؟

- ماذا لديك الآن؟ هل لازلت على الميدان الروماني؟

- نعم!

- لنحاول أن نلتقط الجوانب الأقل تميزاً! روما المجهولة قليلاً!

- ماذا تعني؟

- هل ترى نهر التيبر؟

- أجل! الجزيرة التيبرية، المشفى، أنقاض الجسر... هل هذه من الأشياء المعروفة؟... الغيتو، تراستيفير...

- هل أدركت الفاتيكان؟

- لا.

- كيف لا؟

- إيه... لم أصل إليه!

الطلاب يصغون بانتباه إلى الحوار الدائر بين فيلليني والمحامي.

- دوماً نفس القذارات. إنك تمسخها تماماً مدينتنا روما!

- عفواً يا كونوشيا. قف هنا قليلاً... ثم إنك ترى أفضل من هنا... ينبغي أن نضع الشاريو هنا...

- حسناً، أريد أن أرى أمي... لقد صغرت!

- آه، حقاً؟

- إيه! ذلك أنها بلغت التاسعة والثمانين، تبدو كعصفور صغير، المسكينة... لا زلت أذهب للغداء عندها كل خميس.

فيلليني يبتعد.

- لحظة، عذراً... ثم يلتفت نحو الطلاب: ماذا هناك؟

- كنا نريد التحدث إليك، أن نتحاور قليلاً... أن نسألك هل تعتمد وجهة نظر موضوعية حول القضايا المأساوية التي يعيشها مجتمعنا المعاصر.

- بالطبع، فنحن لا نتحدث فقط عن قضايا التعليم...

- لكن عالم العمل، مثلاً، مع... مع المشاكل داخل المعامل، في الضواحي...

- نأمل ألا نكون دوماً روما نفسها، روما الوقحة والأمومية.

- أي دوماً الشيء نفسه... إذ إن روما ليست هذه فقط.

فيلليني مبتسماً، وبارتباك يدافع عن نفسه.

- أجل، فهمت... أعني كل إنسان ينقل فقط ما يعرفه.

- إذ إن روما كهذه لا تهمنا نحن، لا من قريب ولا من بعيد!

- هذا صحيح، يجب التركيز على الدور الثوري للطبقة العاملة... وعلى الأخص بروليتاريا المدن.

مجموعة العمل تتهيأ لتناول الغداء فوق العشب.

مسرح البارافوندا الصغير

راقص يتنقل وحيداً فوق خشبة المسرح الغير. يداه متشابكتان تغطيان وجهه. يباعدهما ببطء لتظهر عيناه تحيطهما هالة كثيفة من الصباغ الأسود. تطل مجموعة الراقصات على أنغام مقطوعة البوليرو لرافيل. في الصالة الغاصة بالمتفرجين، يقترب رجلان من الخشبة، ينظران إلى الراقصات بلا مبالاة الراقصات يتابعْنَ الرقص والدوران بثيابهن الشفافة. سبينون، فتى بدين، ينادي أحد القادمين.

- هيه! شيودو! تعال هنا!

- آه! أنت هنا! انتظر، أنا قادم!.

شيودو يذهب للجلوس بجانب سبينون. إنه يضع نظارة سوداء يرفعها فوق جبينه، ومنديلاً من الحرير معقوداً حول العنق. هيئته تنمّ على رجل مسكين يحاول، دون نجاح، أن يبدو سافلاً.

- كيف حالك يا سبينون؟

- هل لديك نار؟ يسأله سبينون وهو يقدم إليه سيجارة.

آلات النفخ النحاسية تحيي دخول الراقصة الأولى التي تأخذ بالانسياب وهي تلتف برداء طويل أشبه برداء جارية شرقية، أمام ديكور غريب مؤلف من شجرة صبار على خلفية سماء مرصعة بالنجوم.

الصالة تضج بالتصفيق والصفير وقرع الأقدام. تنفجر دقات الصنوج وتثور الآلات النحاسية من جديد. ينفتح الرداء الطويل، ويقدم لعيون المتفرجين جسداً شبه

عار. يقترب رجل من الخشبة كي يرى بوضوح أكثر الحركة المثيرة لبطن الراقصة. في الصالة تتصاعد الاحتجاجات.

- لا تنظر إليها أكثر من اللازم، سترهق نفسك.

- اجلس.

- **هل تعتقد أنك شفاف! لربما تناولت غداء من الزجاج.**

- إيه! أوه! ألم تر في حياتك شيئاً كهذا؟

الرجل يستدير نحو الصالة بحركة نزقة، قبل أن يعود إلى مكانه.

متفرج يخرج رغيفاً طويلاً من الخبز، ويأخذ في التهامه بنهم وعيناه تحدقان بالخشبة حيث تؤدي الفرقة الراقصة بأكملها الآن رقصة «قافلة تيغري». ينهض رجل من الصف الخلفي، ويلتفت نحو عامل الإضاءة صارخاً:

- بيريكليس! بيريكليس!

يظهر وجه صغير خلق شعاع ضوء الكاشف.

- ماذا تريد يا نينو؟

نينو يتابع ضاحكاً وهو يلف راحتيه حول فمه!

- سدد نحو مؤخرتها!

- لا أستطيع المجيء يوم السبت! ابنتي ستلد! يجيب بيريكليس وهو يدلي جسده نحو الصالة.

نينو يشتري قطعاً من الحلوى، يقذفها نحو فتاة شقراء بدينة ترجرج جسها على إيقاع الموسيقا.

- خدي أمسكي!

انتهى البالية على الخشبة. رجل ينهض ويتطاول لبلوغ صديق له يجلس على مسافة منه، يناوله لطمة قوية على رقبته.

- أنت مسرور لرؤية هذا هيه؟.

- أوه! كفى! على مهلك! يجيب الآخر وهو ينهض ويرد له لطمته. ثم وهو ينتقل للجلوس في مكان آخر له ضربة شديدة بطرف سترته.

تنسدل الستارة، يتجه الرجلان نحو باب الخروج وهما يتبدلان المناحرة والشتائم.

يتابع البرنامج. ضوء الكاشف يمسح مكان جلوس العارفين قبل أن يستقر على مونولوجيست يتقدم نحو الميكروفون.

- ها أنا أعود إليكم من جديد! سيداتي وسادتي مساء الخير... من عادة فناني المنوعات أن يرووا بعض النكات قبل البدء بنمرتهم...

اثنان من المتفرجين يجلسان فوق مصطبة قرب الخشبة، يدخنان ويبدو عليهما الضجر الشديد. أحدهما، يضع قدمه فوق الحاجز، بعنف الكوميدي:

- ها! اذهب!

المونولوجيست برمق المتفرج بنظرة سريعة ويتابع.

- لن أروي لكم نكاتاً لأنني لا أجيد روايتها... لكنني سأقدم لكم، بعد إذنكم، بعض أدوار التقليد التي حققت لي أكبر نجاحاتي...

في مؤخرة الصالة، صبي يرمي حبات الترمس فوق الصلعة الملساء لمتفرج يستدير محتاجاً.

- في مسارح رو كاسيتشا، فراسكاتي، مارينو، زاكورولو، نلت متعة تقديمها أمام... الدرك...

الصبي يتظاهر بالنوم، ثم يرفع رأسه ببطء ويقذف بحبة ترمس أخرى. المتفرج يستدير ويتفحص الصالة دون أن يلحظ الصبي.

المونولوجيست يتابع نمرته.

- ... سأبدأ بتقليد رجل أثقل في الطعام... موسيقا من فضلكم...

المتفرج الجالس فوق المصطبة يستمر في عدوانيته.

- قلت لك اذهب!

الممثل يظل لا مبالياً، لكن شيودمر يضم صوته إلى صوت المتفرج ويصرخ بدوره.

- ما بك، ألم تسمعه! قال لك: ارحل!

متفرجة تحتج.

- اجلس! جلوس!

المونولوجيست يعلن إسكيتشه التالي، وبحركة من يده يدعو الجمهور إلى الهدوء.

- إليكم التقليد الثاني: صبية تحت الدوش. موسيقا من فضلكم.

بحركات إيمائية يقلد فتاة تحت الدوش. صديق لشيودو ينهض ويصرخ بدوره.

- وبعد، هل ستذهب أو لا؟

- بالله انظروا هذا المزعج. وماذا لو كنا نرغب بالمشاهدة نحن؟

سبينون ينهض بدوره، ويصرخ مع شيودو وصديقه:

- إلى الخارج!

الممثل الهزلي يتوقف.

- ولماذا علي أن أذهب؟

شيودو، متقززاً، يستمع إلى احتجاجات الممثل المؤثرة.

- من حقي أن أرتزق أنا أيضاً!

شيودو وأصدقاؤه ينهضون.

- إذن، نحن الذين سنرحل.

حبة ترمس أخرى تحط فوق الجمجمة الصلعاء التي تستدير دون فائدة. كان الصبي يضطهده قد غير مكانه. هو الآن واقف يستند إلى أحد الأعمدة.

الممثل يكمل نمرته بعد أن أنهى مرافعته.

- أنا كوميدي من مرتبة عالية.

شاب شارع الباغوتا بين الحضور برفقة صديق يكبره سناً، وهو مثقف ذو نظارة، يأكل البوظة وهو يعلق على البرنامج.

- هذه هي أعياد الدعارة السائدة في يومنا هذا! إذا دققت جيداً ستلاحظ أن الجزء الأول من البرنامج ينتمي إلى تقاليد سيرك ماكسيم وأجواء المواخير في آن معاً!

صديقة تجلس بجانبه، تتدخل بلهجة لا تخلو من التهجم.

- إذا كنت ستبدأ تنظيراتك السخيفة، فسأغادر المكان!

- ماذا قلت؟ بروست نفسه يتحدث عن الماخور! بل إنه يقدم له وصفاً مطولاً في «**البحث عن الزمن المفقود**».

- غريب أنت... دوماً بروست على لسانك!

أمام الميكروفون، الممثل الهزلي يسترحم.

- أنا أيضاً علي أن أشتغل!

متفرج، وهو يستند إلى حاجز الخشبة، يوجه الضربة القاضية للممثل.

- معك حق! عليك أن تبحث لك عن عمل! ويشير إلى عازف البيانو الذي يبدأ مقطوعة جديدة: هيا غيّر هذا!

عاجزاً مستسلماً، الممثل يحيي الجمهور ويخرج. شيودو ورفاقه، الذين كانوا قد نهضوا مغادرين، يصفقون برضا.

ثلاث كوميديين هزليين بثياب السهرة الرسمية يتقدمون، أحدهم خلف الآخر، في الممر المركزي. كل منهم يحمل شمعة مضاءة. متفرج يمسك آخرهم من طرف سترته.

- ماذا تريد؟

الكوميديون الثلاثة يبدؤون الغناء، وقوفاً أمام الصف الأمامي الوجه مخضب أبيض، وربطة قصيرة معقودة حول العنق. الجذع عار تحت الصدرية. شيودو وأصدقاؤه يعدّون لمزحة جديدة. شيودو يستند إلى مسند المقعد الذي أمامه ويحدق بالممثلين بنظرة مثيرة وهازئة، بينما يفتح سبينون جريدته منصرفاً عما يجري.

الثلاثي يغني: «مذهل كم تسلونني...»

- لن يجعلني هذا أسقط على قفاي من كثرة الضحك! يجيب شيودو ووجهه يخلو من أي تعبير. يفرك راحتيه مطولاً وكأنه يبحث عن فكرة، ثم يرفع إصبعيه إلى فمه ويصدر صفرة طويلة مدوية.

الثلاثي يتوقف. المشاغبون يتصنعون أثر المفاجأة الكبيرة، ويقهقهون ملء أفواههم. السيدة التي دافعت عن المونولوجيست تتدخل من جديد بغضب شديد.

- انظروا أبناء الأوغاد! حتى المسرح لم يعد بإمكاننا الاستمتاع به!

صديقة تساندها.

- عندما أتذكر أن الآلاف يقتلون على الجبهة، بينما هؤلاء يظلون هنا!

سبينون يستدير نحو السيدة وصديقتها:

- والله إنك أرتيست يا سيدتي!

- استدر!

- أبناء الأوغاد، أما كان أجدى بكم أن تذهبوا لتقتلوا؟

الثلاثي يبدأ مطلع أغنية تتناول الأحداث الأخيرة: «سمعت صوتاً خافتاً من هناك...». المرأة تستمر في صخبها الاحتجاجي.

- وأنا التي أسمُّ بدني بالمجيء إلى هنا!

زوجها، متضايقاً، يحاول تهدئتها.

- لا تهتمي، هيا لا تهتمي!

- كيف تريدني ألا أهتم! أنا دفعت ثمن بطاقتي، وأريد رؤية العرض بهدوء. اسكت أنت أيضاً من فضلك، هيه!

شيودو يلتفت نحو السيدة.

- لكن يا سيدتي، ماذا تريدين بالتحديد؟ آه لا لا! إنهم يدخلون أنواعاً عجيبة من الناس!

سبينون يطوي جريدته ويناولها إلى شيودو، ثم يتوجه نحو الثلاثي ويشعل سيجارته من شمعة أحدهم.

- ماذا تريد؟ التنكيد علينا؟ اذهب لإشعالها من قرني أبيك!

سبينون يأخذ نفساً طويلاً، ثم ينفث الدخان في وجه الممثل.

- عامل دفن الموتى!

الثلاثي يصعد إلى المسرح. في الصالة يتصاعد صوت طفل صغير يتباكى، والدته تضعه على الأرض، وتجعله يتبول وسط الممر المركزي.

- هيا، بيبي!

امرأة بنظارة تحتج بحنق.

- لكن بالله ماذا تفعلين يا سيدتي، هذا معيب.

- إيه، إنه طفل الإله الطيب!

- ما معني هذا؟ إننا جميعاً أبناء الخالق، أبانا الذي في السموات، لكن لو فعل كل منا هذا!...

- أوه! لا عليك! نقطتان من الماء، يا لملاكي المسكين! هل كنت تريدين أن يعملها في ثيابه؟

متفرجة تتدخل ساخطة.

- هل سيستمر طويلاً سيرككم هذ؟

الأصلع غارق في النوم، يشخر بصخب ورأسه مائلة على مسند مقعده. امرأته جالسة بجانبه، هزيلة وقبيحة.

صبي في الممر الجانبي، يتقدم دون ضجة، حاملاً رزمة من الجرائد المبللة. يجلس بجانب الصبي ذي الترمس الذي يختطف الجرائد دون أن ينظر إليها ويرميها فوق رأس الأصلع. المرأة تطلق صرخة زوجها يقفز مصعوقاً، ينهض ويهجم على متفرج يجلس الصبي المذنب.

- يا بن العاهرة! سأنتزع رأسك!

إيه! رويدك! إنه مجنون! ما بك؟ لست أنا...

المرأة تمسك بزوجها من سترته.

- لا تلفت الأنظار إليك هكذا! هدئ من روعك، اجلس!

في مكان جلوس الأوركسترا حيث يخيم دخان كثيف يعلن البيانو «ساعة الهواة».

- هل تعتقد أنني لم أرك منذ بداية السهرة؟ لم تتوقف عن قذفي!

- هيه! ها هو يبدأ من جديد! قلت لك لا علاقة لي!

- سأنتزع ساقيك!

المتفرج، مذعوراً، يصمت دون إجابة.

- سأنتزعهما لك، الاثنتين!

متفرج آخر يتدخل بينهما ويقود الأصلع من ذراعه إلى مقعده.

- هيا يا جميلي مجعّد الشعر! هدئ نفسك! هدوء! عد إلى النوم! واحد، اثنان، واحد، اثنان! يا شاطر...

رجل يصرخ بعازف البيانو.

- يا مايسترو! هل تعرف هذه؟ وبأخذ في تصفير لحن «أقتل العجوز بمبيد الحشرات». دون أن يترك مفاتيح البيانو يجيب العازف على الفور:

- اخرس!

وهذه هل تعرفها؟

ينهض العازف هائجاً ويتناول زجاجة فارغة.

- سترى!

الستارة تتفتح عن عريف الحفل، روماني ممتلئ الجسم، منفرج الأسارير.

- والآن سيداتي سادتي، إليكم اللحظات الأكثر جاذبية في برنامجنا: «ساعة الهواة». حافظوا لي عليهم، لا تعطبوهم! انتبهوا، هه، لأنكم لن تجدوا من هم أكثر منهم سوءاً! الفنان الأول الذي سأقدمه لكم خرج للتو من ملجأ الأطفال اللقطاء... ها هو ذا! يصفق.

يدخل المسرح رجل يبدو عليه الضيق والارتباك في ثياب السموكين.

- ما اسمك!

- دي جيرولامو، آرنستو.

- وماذا ستغني لنا؟

- «الخريف».

- أو لالا! يا أطفالي، بسرعة احضروا لي معطفي، البرد قارس!

مقدم البرنامج يبتعد وهو يرفع ياقة سترته.

الجمهور يصغي بشيء من الانتباه.

فتاة ممتلئة الجسم وقد كشفت عن صدرها ترضع طفلها. خلفها رجل ضخم ينفتح قميصه على صدر متهدل كثيف الشعر، يصب مشروباً في فمه، ثم، وقد أطبق جفنيه، يتجشأ بصوت مدوٍّ. الفتاة تلتفت نحوه...

جميل!

- آه، حقاً؟ الجميع يقولون إنني جميل!

- فلاح!

على الخشبة يتخبط المغني في حركاته، يرافق نهاية أغنيته بإيماءات مضحكة... مقدم البرنامج يسرع لتقديم الفنان التالي.

- والآن إليكم... مسكيناً آخر!

ينظر نحو الكواليس... ولكن يا إلهي أين هو ذلك العملاق، ذلك العمود، تلك القوة الخارقة، بالله أين هو؟ كان هنا من لحظة!

رجل صغير مسكين، مصبوغ الشعر، يرتدي بدلة رسمية من الساتان الأسود لا تكاد رأسه تطل من ياقتها، يظهر خلف مقدم البرنامج الذي يستدير نحوه.

- ماذا جرى لك؟ أما صار عمرك سنة!

- لا.

- إذن فأنت خديج.

- نعم.

مقدم البرنامج يستدير نحو الجمهور.

- لقد ولد قبل أن يوصى عليه كما ترون... ما اسمك؟

- الفارو.

- وماذا تعمل من أشياء جميلة؟

- أنا راقص!

- لا، أقصد ما هو عملك، صنعتك؟

- آه، عفواً! أنا كهربائي.

- آه، كهربائي! إذن فقد تعلمت الرقص من لذعات التيار الكهربائي!.

الراقص يضحك، ثم بقبعته العالية وعصاه القصيرة يعلن:

- تقليد فريد أستير!

على لحن «آي، هنالك حصاة في حذائي» يبدأ الكهربائي الصغير بالرقص. في الصالة، شيودو وزملاؤه يعدون لقفشة جديدة. يناولون قطة ميتة إلى سبينون الذي يلوحها فوق رأسه، ثم يطوح بها بكل قوته نحو الخشبة.

- خذ اصنع معطفاً لك يا فريد استيك!

الحيوان المسكين يسقط أمام قدمي الراقص الذي يتوقف، يلتقط القطة، يدنو بهدوء من حافة الخشبة الأمامية ويرميها إلى الصالة.

- هل هو غداؤك هذا الذي أرسلت إلي؟ خذ، كل، إنه نتن. مثلك!

القطة تسقط وسط الجمهور الذي يصرخ، يضحك ويصفق.

- هيا! موسيقا!

الكهربائي ينهي نمرة الكلاكيت بأداء باهر. الجمهور يصفق ثانية بحماس شديد.

- برافو! برافو! برافو!

عريف الحفل يتقدم وهو يصفق، يشد على يد الراقص الذي يشير بحركة فاضحة من يده نحو المشاغبين قبل أن يترك المسرح. مقدم البرنامج يتبادل بعض الشتائم مع سبينون.

- لو كنت أنا من قذفتني بها لجعلتك تلتهمها!

- زوج العاهرة!

مقدم البرنامح يلتفت نحو الكواليس لاستقبال مغنية شابة.

- تعالي يا صغيرتي، تعالي، ما اسمك!

- لوراندا فيوريني.

- وماذا ستغنين لنا؟

- «أنت الذي سلبت قلبي»

شتائم أخرى تأتي من الصالة البرنامج.

- أبله!

- سأريك عند الخروج...

- أنت الذي سلبت قلبي...

المغنية الصغيرة تبدأ بصوت فاتر.

في الصالة مخنث عجوز وجهه مغطى بالبودرة والماكياج، وحول عنقه منديل من الحرير ينحني نحو الشاب.

- هل لديك نار، أيها الشاب؟ لماذا أدري لماذا تغني هذه الفتاة... كان من الأجدر بها أن تظل في بيتها تغسل الصحون!

الشاب يمد له علبة ثقاب.

- شكراً... آه، لم يبق عندنا فنانون... كم هذا مؤسف!

يشعل لفافته، ويعيد علبة الثقاب إلى الشاب مع نظرة طويلة.

- آسف... شكراً.

المغنية الشابة تتململ وهي تؤدي الرومانس العاطفي بانفعال بالغ. اثنان من رجال الشرطة يتسللان خلسة لاعتقال شاب.

- تعال معنا لحظة.

- لكن لماذا؟

- لحظة فقط، ابق هادئاً. ينتزعانه بقوة ويسوقانه نحو المخرج.

المغنية ترسل النغمات الأخيرة من أغيتها، وتحيي الجمهور الذي يصفق بحرارة. مقدم البرنامج يعود نحو الميكروفون.

- والآن إليكم الثلاثي فيزا!

يصفق محيياً النساء الثلاث وهن يدخلن إلى الخشبة يرتدين أثواباً زرقاء منقطة بالأبيض، تزين صدر كل منهن زهرة قرنفل، يستقبلهن قرع الطبول. الثلاثي يبدأ بغناء «الصغيرة الحلوة» وهن يتمايلن بغنج ودلال. في الصالة أحدهم يطلب أغنية أخرى.

- «سر أيها الحصان الصغير».

المقدم يتدخل من خلف الستارة.

- اخرس!

- «سر أيها الحصان الصغير»! ثم وهو يلتفت إلى جاره: أنا أحب «سر أيها الحصان الصغير»، هل يزعجك ذلك!

على الخشبة الثلاث فيزا يغني الآن «سيريناتا ديل سوماريللو».

المغنية المنفردة تأخذ هيئة من يبحث عن الإلهام بينما تتأرجح رفيقتاها ببطء.

في الصالة، جنود يصغون بانتباه إلى الأغنية الرومانسية. وما إن تبدأ إحدى المغنيات بدندنة «لابيللا رومانيانا» (الرومانية الحسناء) حتى يندفع الجمهور في تصفيق هادر ويردد خلفها في كورال ضخم. مقدم البرنامج يعطي الإيقاع للجمهور. في هذه الحمية العامة، يندفع أحد الممثلين الكوميديين إلى الخشبة ويستولي على الميكرفون.

من فضلكم، من فضلكم... عذراً ولكن ينبغي إيقاف العرض لأن علي أن أعلن لكم خبراً سعيداً! الوطن قبل كل شيء! وقوف من فضلكم!

الجمهور يصغي بانتباه، الموسيقيون يتوقفون عن العزف وينهضون.

- أعلن الراديو قبل لحظة البيان العسكري التالي، اقرؤه لكم: «الهجوم الذي قام به العدو ليلة أمس على صقلية بمساندة قوات بحرية وجوية ومحمولة جواً قد تم صده بشكل نهائي من قبل القوات الحليفة...

المشاهدون ينهضون بتثاقل وعلى مضض.

... التي تقاتل على طول الساحل الجنوبي الشرقي. المدفعية الإيطالية والألمانية المضادة للطائرات أسقطت/١١/ طائرة وأعطبت ثلاث قطع بحرية معادية.

امرأة تبكي وهي لا تزال جالسة.

- سنصد كل هجوم يتعرض له وطننا بقوة، وسنقوم برمي القوات المعادية إلى البحر... ويختم الكوميدي حديثه بلهجة خطابية تفخيمية:

- في سبيل انتصار وطننا وقائدنا الدوتشي: عاشت إيطاليا!

يؤدي التحية الفاشية ويلتفت نحو الأوركسترا.

- ما يسترو، تابع من فضلك!

الصالة بأكملها تعج بالتصفيق «عاشت إيطاليا!»

على الخشبة الثلاثي فيزا ينهي نمرته بالتنبيلة المعروفة «ماراماو، لماذا أنت مت».

ترافقها حركات إيمائية سخيفة وصبيانية. المشاهدون يرددون بصوت واحد وهم يترنحون يميناً ويساراً: «ماو، ماو، ماو!»

اللوحة التالية تمثل بارجة بمدافع تقصف وتهدر على إيقاع الموسيقا. أمامها يصطف الراقصون والراقصات بثياب البحارة يغنون وهم في وقعة استعداد: «الإبحار في البحر الواسع».

البحارة يتقدمون نحو المدفع لاستقبال الراقصة الأولى التي تخرج من فتحة بيت النار.

في الصالة، ينهض شيودو ويهتف فاتحاً ذراعيه:

- يا للجمال! ما أ جملها! انظري ماذا أتمنى أن أصنع بك!

يأخذ سبينون بين ذراعيه ويتظاهر بتقبيله فوق شفتيه. عجوز هزيل جالس خلفهما ينهض ويحتج.

- أنتم من جديد! كفاكم هذا الآن، اجلسوا!

بضربة من يده، يطير شيودو قبعة العجوز من فوق رأسه.

- ما دخلك أنت؟ أنا أحب النساء!

لكن رجلاً مفتول العضلات يتدخل.

إنك تتكلم مع والدي... إذن خير لك أن تجلس.

شيودو يجلس متذمراً ساكناً تحت أنظار الرجل الضخم الساخرة. فوق المسرح، الراقصون يحملون الراقصة الأولى فوق أكتافهم. شيودو يهدأ للحظة، وقد نفد صبره:

- آه! يا حبي! يا ملاكي! يا لفخذيك!

فجأة، تدوي صافرات الإنذار. شيودو وأصدقاؤه يتلفتون حولهم. هادئين لا مبالين، بل ساخرين.

- هه... إنذار.

- أي والله إنذار.

علا الخشبة أحد البحارة وقد سيطر عليه الهلع يصرخ في الجمهور:

- إنذار!

أعضاء فرقة البالية يتفرقون بينما يتوجه المشاهدون دون تسرع نحو باب الخروج. الجميع يتجمعون الآن أمام باب كتب عليه: الملجأ ١٢٢.

في الصالة وفوق الخشبة يتراكضون عدد من الراقصين وبعض المتفرجين بارتباك واضح، بينما يحاول أحد الممثلين أن يهدئ من روع الحشد وهو يقوم

بحركات مبالغ فيها. تطفأ الأضواء في المسرح الذي بات خالياً تماماً إلّا من متفرج وحيد يغط في النوم.

* * *

في الشارع، لا تزال النافذة أحد البيوت مضاءة. يسمع صوت.

- أطفئ النور! سفاح!

ينطفئ النور.

* * *

الملجأ ١٢٢ قبو كبير مضاء بمصابيح ترسل ضوءاً شاحباً. على طول الجدران وضعت أكياس من الرمل. ثمة أيضاً بعض المغاسل.

أحد موظفي الـ U. N. P. A، وقد ارتدى خوذة على رأسه ووضع قناع الغاز حول عنقه يذرع المكان أمام الباب.

أناس يجلسون على الأرض، آخرون فوق بعض المقاعد. البعض يرتدون ملابسهم وآخرون بثياب النوم. الجميع يلفهم الصمت والأسى والاستسلام. امرأة تهدهد طفلها وهي تدندن.

كم الساعة الآن؟

يتذمر عجوز هزيل قصير القامة.

- كنت مرتاحاً، خالداً إلى النوم... ثم بسبب هذا الـ...

رجل في الخمسين، شعره ملتف بشبكة قماشية، يوجه شعاع مصباحه اليدوي نحو العجوز الذي يرفع رأسه مذعوراً.

- عفواً... ماذا قلت؟ «بسبب هذا الـ...؟»

- أنا لم أقل شيئاً...

الشخص ذو الشبكة، وهو فاشيستي، يلح.

تكلم بوضوح، ماذا تريد أن تقول؟

زوجة العجوز المسكين تتدخل.

- ما أراد أن يقول شيئاً.

- ما أردت أن أقول شيئاً.

الفاشيست يطفئ مصباحه، ويتابع بلهجة متغطرسة وهو يعقد ذراعيه:

- آه، هذا لا يطاق! بعض الناس فقدوا الحياء! في الوقت الذي يعلو فيه الوطن محمولاً باندفاعة ثابتة نحو النصر... لا نزال نسمع أقوالاً انهزامية. ينبغي أن تخجلوا من أنفسكم!

بوجه من جديد ضوء مصباحه نحو العجوز الذي يصمت مرتعباً. الجميع يستمعون بصمت. الفاشيستي ينظر حواليه باعتداد.

- إيطاليا الفاشية! الدوتشي! هذا هو ديننا الأوحد! يجب أن ننتصر... يصرخ في جاره الذي يمتثل بآلية. وسننتصر!

- أكيد! يتابع جاره.

في الطرف الآخر من القبو، يجلس الشاب بجانب راقصتين إحداهما ألمانية ذات شعر أشقر رمادي.

- هل ترغبين في لفافة؟

- لا شكراً، الدخان يخرب صوتي.

- آه... أنت تغنين أيضاً؟

- أجل، لقد تعلمت الغناء في مدينة دوسيلدروف، مسقط رأسي.

رجل في ثوب الحمام يجلس بجانب الراقصة الثانية يتناول منها طاقية البحارة.

- هل تسمحين أن ألقي نظرة؟

يمرر الطاقية إلى جاره. الراقصة تنهض لاستعادتها.

الشاب والراقصة يتابعان حديثهما.

- هل تقيمين في إيطاليا منذ زمن بعيد؟

- إني أعرف روما وميلانو وكوم وبيرغام... ثم وهي تخرج صورة من حقيبتها:

- هذا هانز، ولدي... وهذا زوجي... في روسيا... فيهر ماخت...

الجميع ينتظرون في الضوء الباهت. ينتهي الإنذار. يخرج الجميع. نساء يحملن أطفالهن، رجال، الشاب والألمانية الصغيرة، الراقصة الثانية برفقة بحار آخر...

الأربعة يتوقفون على الرصيف. إحدى الراقصتين تدندن:

- «هناك حصاة في حذائي، آي!»

- هل ترغب في شيء من الراحة عندي، فندقي ليس ببعيد؟ يبتعدون، الشاب يعانق الألمانية الشابة.

في الشارع، الناس يتبادلون الـ «ليلة سعيدة». فجأة يسمع صوت انفجار.

- يا إلهي، يا إلهي! هل تسمعون القنابل! إنهم يقصفون!

الجميع يرقبون من بعيد بريق الانفجارات. امرأة تقبل راكضة وهي تزعق من الخوف.

- النجدة... النجدة! القنابل! بيت البيرتو اختفى!... الأطفال...

رجل يندفع نحو المرأة الهلعة وينطلق الاثنان راكضين.

سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر تقطع الشارع بسرعة جنونية.

الميترو

فريق فيلليني يتفحص ناب ماموث ضخم في ورشة حفر نفق الميترو، ثم يلبس الجميع أحذية عالية في الساق وأردية واقية، ويضعون الخوذات. المصور يسأل والكاميرا في يده:

هل يمكن أن نصور بعض اللقطات؟

مهندس قصير القامة، أسمر هزيل، له وجه هندي يجيب:

- إذ أحببت، هيا.

المصور وفتاة السكريبت يقتربان من المهندس الذي يوضح:

- إنه ناب ماموث حفظ تماماً. اكتشفناه أثناء حفريات محطة ساحة ملك روما. متحف الكابيتول يطالب باقتنائه فوراً... هيا بنا إذا أردتم النزول... عفواً...

المهندس، يتبعه الفريق بكامل معداته، ينزلون المنحدر. يبلغون القطار الصغير الذي سيقلهم لزيارة الحفريات الجوفية. الفريق يصعد في عربات القطار. المهندس يعطي شارة الانطلاق. القطار الصغير يهتز منطلقاً.

التربة التي تقوم عليها روما تحتفظ لنا بالمفاجآت المستمرة... لا نكاد نقطع بضعة أمتار حتى تقع على موقع أثري هام... وهذا بالطبع يؤثر في سير العمل... إنه مشروع بالغ الصعوبة... في البداية كان هدفنا حل مشكلة السير في شوارع المدينة من خلال تنفيذ شبكة مترو كما جرى في ميونخ ودبلن، لكن التربة هنا تتألف من ثماني طبقات رسوبية، ويبدو أننا سنتحول إلى مستكشفي مغارات وعلماء آثار. فقد طُرح موضوع إنجاز مترو في روما أَوَّلَ مرة عام ١٨٧١.

المصور يصحح متشككاً.

١٩٧١- !

- لا! بل منذ مئة عام تماماً! البيروقراطية لها أسرارها... إنها تحتفظ بمفاجآت أكثر من التربة... إن ما تم من مراسلات بيننا وبين البلدية يكفي لملء كل شبكة المترو.

عربات القطار تلج النفق، كابلات ضخمة تتدلى من السقف.

- نحن الآن تحت حي آيبو.

* * *

نافذة تضيء في شقة برجوازية من حي آيبو. في غرفة النوم امرأة قلقلة تسأل:

- أجينور! أجينور! ما هذا؟

رجل بالبيجاما ينهض صارخاً.

- نينا!

- يا إلهي! هزة أرضية!

فعلاً. ثمة هدير مخنوق يهز الجدران والسقف. قطع من الجص تتساقط، بينما، يتثبت الرجل والمرأة بعضهما ببعض بقوة وقد سيطر عليهما الهلع.

- يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!

- أباجورة تسقط.

* * *

القطار الصغير يتقدم الآن في منطقة من النفق مغطاة بنسيج من الفولاذ. المهندس يوضح للمصور الجالس قبالته:

- بأكمله، من الفولاذ...

- ماذا تقول؟ هل يمكنك أن تتكلم بصوت أعلى؟ لا أسمع شيئاً من ضجة القطار.

- أقول: بأكمله من الفولاذ «جيرالتين»... كان هناك خطر انهيار.

- ماذا قال؟ تسأل فتاة السكربيت... المصور مستغرق في التصوير.

- إيه! ميشيل تعالي انظري! سأصور هذه الناحية!

المصور ينهض، ينزع خوذته وينظر عبر العدسة.

- أين نحن الآن؟ تسأل فتاة السكربيت.

- تحت درب آبيا الأثري... ليس بعيداً عن بوابة سان سبياستيان.

القطار الصغير يتابع طريقه تحت أضواء غير ثابتة. قطرات الماء تتساقط من السقف المقوس.

- على يساركم تسمعون صوت نهر جوفي، إنه فوق الأرض على بعد عشرة كيلومترات من هنا، في قرية سيساتي سبيريتي.

الرحلة مستمرة، المصور ينحني إلى الأمام نحو المهندس ويسأل:

- متى سينتهي العمل؟

المهندس يرفع مدللاً على جهله.

- ليس لدي أية فكرة.

الرواق يتسع فجأة، والقطار الصغير يتقدم تحت قوس صخري تجتازه تمديدات أنابيب ضخمة. قطرات من الماء لا تزال تتساقط من السقف. تقترب عربة ممتلئة بالعمال وهم يقفون ساكنين.

- كم ساعة يعملون في النفق؟

- ١٠ ساعات في نوبة واحدة على ما أعتقد.

القطار يغير اتجاه سيره، ويمر من أمام مدافن حفرت في الجوانب، بقايا عظام بشرية لا تزال تشاهد في داخلها.

- كما ترون، ها نحن نغير الاتجاه مرة أخرى. على يساركم ترون مقرة ضخمة تحتوي على أربعمئة هيكل عظمي.

في نهاية الرواق، عامل يصدر إشارة ضوئية للقطار الذي يتوقف. الفريق يترجل. عمال يشتغلون تحت أضواء خافتة، يرتدون خوذات عمال المناجم، التي تحمل مصابيح صغيرة في مقدمتها. في البعيد، مصباحان يثقبان العتمة وكأنهما عينان فوسفوريتان. المهندس ومراقب العمال يسبقان المجموعة في الجزء الأخير من النفق.

- أعتقد يا حضرة المهندس أننا سنقع على جيب هوائي جديد. الجهاز الكاشف يعطينا علائمه منذ يومين.

أحد الفنين يقترب من المجموعة.

- يجب إيقاف الخلد (آلة الحفر).

- ما الذي يجري؟

- تعال انظر الكاشف.

مازيني مساعد المصور، يغطي وجهه بيديه وكأنه يشعر بالدوار. أعضاء المجموعة يلتفون حوله.

- ماذا جرى لك؟ يسأله المصور.

- باه! لا أدري. يبتعد مازيني قليلاً.

المهندس والفني يرقبان الاهتزازات السريعة لمؤشرين على مقياس الكاشف، المهندس يستغرق في التفكير. عمال يقتربون من الجهاز، الفني يصرخ:

- أوقف الخلد!

عاملان يعالجان رأس الحفارة لإبعاده عن الجدران. دولاب مسنن ضخم ينفصل عن الصخور. المهندس يصعد فوق منصة الحفارة، ويدنو برفق عاملين من الجدار الصخري. فتاة السكربيت تقترب بدورها... المهندس يشير إلى أماكن متفرقة من الجدار، يتحسس بيده مدى صلابته.

- وهكذا، نحن نعلم الآن أن هناك فراغاً هائلاً في الجهة الأخرى، علماء الآثار سيتسببون الآن في إيقاف العمل لشهرين على الأقل. ربما كان هنالك كهف أو مدافن جوفية. يمكننا أن تحاول معرفة ذلك... لكن ينبغي الحذر الشديد. شغلوا الثقابة.

المهندس وفتاة السكربيت، وقد سحرهما الموقف، لا يشعران بوابل الطين الذي أخذ يتساقط فوقهما. لم يريا بعد ما الذي يخبئه الجدار... قاعة خالية ساكنة، رواق طويل تغطي جدرانه التزينيات، درع محارب من العصور القديمة منقوش في الحجر، نفق طويل لا نهاية له. الثقابة نتابع التهامها. يدا الآلة المعدنيتان تنظفان الأرض. الثقابة تدور الآن في الفراغ وقد اخترقت الجدار تماماً. العمال ينتظرون دون حراك ورؤوسهم متجهة نحو الأعلى. مازيني يتنفس بصعوبة وقد استند إلى الجدار. الثقابة توسع الثقب، وتجهز فتحة واسعة في الجدار.

- أوقفوا الثقابة!

- أوقفوا الثقابة!

فتاة السكربيت تطلق صرخة تعجب إثر اكتشافها للوحة جدارية كبيرة تمثل مجموعة من النبلاء الرومانيين يصعدون سلالم حجرية.

- ميشيل، أسرعي!

عامل ينحني وفي يده مصباح كهربائي يستكشف العتمة، ثم يستدير نحو المهندس.

- انظر، بإمكاننا النزول من هنا!

المصور يتمّم:

- منزل روماني... عمره ألفا عام!

عامل يطأ أرض القاعة بواسطة حبل، يتبعه المهندس، ثم عامل آخر وفتاة السكربيت. في القاعة، المجموعة المصغرة تقترب من اللوحات الجدارية. حزمة المصباح الضوئية تمسح بالتتالي الدرع الحجري. ورسماً أخاذاً يمثل فتاة تحمل حمامة. العاملان يتقدمان في أحد الأروقة، يكتشفان بئراً صغيرة مزينة بالموزاييك. يتوغلان قليلاً، ينزلان بضع درجات في ممر ضيق تقودهما إلى قاعة أخرى تزين جدرانها مجموعة من البورتريهات.

- ميشيل! انظري هذه الوجوه!

- لا تنزع قناعك!

عبر نور ضبابي، المصور وفتاة السكربيت يحدقان وقد تسمرا في مكانهما مأخوذين. أعمدة طويلة مزينة برسوم شخصيات ميثولوجية. العمدة تحيط بحوض واسع. بعض العمال يسيرون في الماء. بجزماتهم العالية، فتاة السكربيت تتوجه نحو الحوض وتهتف:

- انظروا! أضيئوا هنا!

أضواء المصابيح تبرز في العتمة تمثالاً ضخماً من المرمر الأبيض. فجأة يصيح أحد العمال:

- تعالوا انظروا! ما الذي يجري؟

وجهه امرأة ينمحي شيئاً فشيئاً، ويغيب من فوق أحد الأعمدة. السكربيت تتأمل.

- إنه الهواء الخارجي، إنها تختفي! الهواء الخارجي!... تلتفت نحو المصور... ميشيل! ميشيل! الهواء يخرب الفريسك!

طبقة أشبه بالبلاتين تغطي الفريسك بسرعة خاطفة.

- لا! انظروا هذه الكارثة! ميشيل! هل يمكن أن تفعل شيئاً؟ يجب أن نفعل شيئاً!

وجهان يختفيان تحت هذه الغلالة السرية.

- افعلوا شيئاً، أي شيء!

الفتاة تبسط يديها فوق أحد الأعمدة وكأنها تريد إيقاف الكارثة المحتمة.

- لا! هذا غير معقول! أَوْقفوا هذا...

تنخرط في البكاء.

المواخير

فتيان وفتيات يستلقون تحت أشعة الشمس فوق درجات كنيسة القديسة - ترينيتيه - دي - مون. قمصان مفتوحة على الصدور، عقود، أحذية ضخمة، شعور طويلة، لحى... بعضهم يعزف على الناي، آخرون على الغيتار. بعض المارة يتوقفون وقد أثار المنظر فضولهم. هندي شاب يؤدي صلاته، واقفاً، ورأسه مرتدّ نحو الخلف. شباب وشابات يتبادلون القبل. آخرون يستحمون ويلعبون تحت مياه نوافير البينسيو. فوق المرج الأخضر، شاب وفتاة يغطّان في النوم، متعانقين في كيس نومهما.

* * *

الساعة تشير إلى التاسعة عشرة وأربعين دقيقة، زقاق معتم، وسخ. رجل يجلس أمام موقد صغير، يشير بحركة ذات معنى إلى اثنين من الجنود يمران أمامه ويبتعدان.

* * *

صبية وحيدة في دكان بائع تحف قديمة.

تلهو وهي تقفز فوق سجادة. والدها جالس وسط الشارع يدهن خزانة. عاملان يمران أمام الدكان، يحملان قضيباً تتدلى منه خراف مذبوحة.

طفل يلهو فوق هيكل تخت معدني، فراش يحترق خلفه.

ثلاثة جنود يتسامرون، ثم فجأة يتسمرون في تحية عسكرية. ضابط يمر بجانبهم.

الماخور في الرقم /١٤/.

* * *

بوابة الماخور العجوز تغفو قرب الباب. ضابطان طياران يخرجان وهما يتمازحان ويتبادلان الشتائم مع البوابة التي تلوح لهما بعصاها. العجوز، نظاراتها فوق أنفها، تنادي غلاماً.

- إلى أين أنت ذاهب، أنت؟ ما عمرك؟ أرني بطاقتك الشخصية.

تتفحص البطاقة التي يمدها لها. الرجال ينتظرون في ممر طويل، يتدافعون لرؤية المومسات اللواتي تقدمهن صاحبة النزل.

- هيا، هيا! بالله عليكم ماذا تفعلون هنا؟ اصعدوا إلى الغرف. تشجعوا! متى ستتحركون أيها العجزة! ألا تملكون عيوناً ترى؟ هيا!

جندي يقذفه رفاقه في الهواء.

- هيا، هيا! لا بدَّ أنكم تنامون واقفين!

جندي آخر يُقذَف في الهواء.

- أي- هوب!

- يكفيه هذا! سأطفئ الأنوار وأرميكم خارجاً إذا استمر هذا! يا لله ما الذي يجري في عروقكم؟ أهو دم فاسد؟ هل عميتم؟ كلهن أرتيستات فتياتي!

رجل بدين يعقد العزم، يشق الصفوف.

- دعوني أمر! هيا!

* * *

وسادتان، بقعتان دهنيتان، ضوء النهار يتسلل عبر النافذة فوق أغطية السرير المتناثرة.

* * *

عاملة الصندوق، وعقب سيجارة بين شفتيها، تردد بلهجة آلية:

- هيا، هيا يا بنات! إلى غرفكن!

قوادة تغط في النوم، رأسها يستند إلى الصندوق. عدد من المومسات جالسات فوق مقعد طويل. واحدة تقرأ الجريدة. أخرى تحدق في السقف، مجموعة صغيرة تثرثر. فتاة ذات شعر كثيف مشعث، تستثير أحد الزبائن.

مرتاح هنا؟ ماذا تريد أن أحضر لك؟ وسادة، كأس من البابونج؟

امرأة بدينة تنزل السلم الذي يقود إلى الغرف، يتبعها زبون يصلح ربطة عنقه، تصرخ في عاملة الصندوق:

- اثنان!... تستدير نحو الرجل:

- سلام يا جميلي! أنتظرك غداً!

جو خانق يخيم على القاعة الكبيرة التي يقسمها حاجز حديدي إلى قسمين. خادمة تلتقط سطل المسح والمكنسة وتصعد إلى الطابق العلوي. موظفة الصندوق تتابع تحريض حشد الزبائن الذين يتزاحمون خلف الحاجز. في الجانب الآخر. العاهرات تستعرض أجسادهن جيئة وذهاباً. بعضهن يسترن صدورهن، البعض الآخر بنهود عارية، أخريات بثياب داخلية شفافة.

- هل تتبعني؟ تعال، تعال أيها الجندي الجميل! هل تأتي أيها البحار؟ هيا يا صغاري، لن تتركوني وحيدة!.

مومس عجوز تجلس فوق مقعد صغير، تمد لسانها بحركة فاجرة.

- تعال يا كنزي!

فتاة هزيلة تقف بجانبها، تسأل.

- هل جربت الحقن بعد ذلك؟ هل أحسست بالراحة؟

المومسات يواجهن الزبائن بحركات هيستيرية وعدوانية فاجرة إحداهن تنطط ثدييها بيديها.

- هيا يا أطفال! يا سادتي الحلوين، سأفعل كل ما تطلبونه مني! هيا، هيا!

- هيا! أسرعوا! سنغلق عما قريب!

شقراء بكتفين مليئتين تصعد السلم برفقة بحار.

- هذه المرة ستكونين هادئة قليلاً، هيه!

القوادة أمام الصندوق، تحثّ الزبائن.

- كلهن جميلات، كلهن أرتيستات! هيا يا سادة! هيا!

توسكانية صغيرة سمراء ترتدي صدرية وسروالاً قصيراً تعرض نفسها أمام الرجال الذين ينتظرون.

- دوبل! نعم يا سيدي! من الذي سيأتي مع فلورنس!

زبون يتقدم، يصعد السلم، تتبعه الفلورنسية، تربت على ظهره بسرور.

- برافو!

صبي بدين ينزل، ترافقه مومس ذات نهدين هائلين تسندهما صدرية عريضة المربطين. الصبي متحمساً، يروي لصديقه متضاحكاً:

- آه! اللعنة! عندها نهدان! نهدان! يزيدان على أربعة كيلو غرامات! يؤدي تحية عسكرية لموظفة الصندوق.

- أيها القائد.

موظفة الصندوق تخاطب المومس.

- عليك أن تعطيني فيشتك أولاً!

رجل يتوجه نحو المخرج وهو يشتم إحدى المومسات.

- عاهرة! إنك تثيرين قرفي! من الذي رماك هنا!

بحار وإحداهن ينزلان السلم ويتوقفان أمام موظفة الصندوق. البحار متلهياً يرقب المشهد الذي يدور بين الزبون الغاضب وموظفة الصندوق التي تتدخل قائلة:

- ولماذا صعدت؟ كي نزعج الناس في عملهم؟

العاهرة تقدم فيشاتها.

- اثنان.

- نصف ساعة، تجيب موظفة الصندوق.

ثم وهي تستدير نحو الزبون:

ولكن هل تعلم أنه بإمكاني طلب الشرطة؟

- بل أنا من سيذهب في طلبهم!

- أنا أفضل! أنا أرتيست المنزل!

- هيا! تشجعوا!

- ماذا تفعلون هنا؟ هل ستصعدون أم لا؟

سمراء ذات شعر طويل كل الزبائن وتستثيرهم بدعاباتها وغمزاتها.

- أقوى من التيار الكهربائي... تعال سأجعلك ترتعش!

جندي يحاول القفز فوق الحاجز، لكن الخادمة تدفعه.

- دعيني أم كينغ كونغ!

- سأجعلك تنزل السلم قفزاً.

الجو المخيم على الصالة المليئة بالدخان يذكر بيوم الحشد وبمصحٍّ للأمراض العقلية. في حلقة مسعورة تطلق المومسات صرخات حادة في وجه الرجال الذين يتدافعون نحو الحاجز، نوع من الهيستريا يتملك بعضهن. فتاة شقراء ذات عينين زائغتين، تنط في مكانها رافعة ذراعيها، أخرى سمراء، ذات وجه شبق وحشي ترتدي صدرية مثنية على نهديها، تحمحم ملتفة نحو الزبائن:

- هيا، هيا... هل نذهب، هل نذهب، هل نذهب...

موظفة الصندوق تنادي الشقراء ذات العينين المجنونتين.

- لسنا في مصح هنا! عليك الذهاب إلى سانتا تشالا! تحركي! تنفجر مشادة بين عاهرتين حول فنجان قهوة.

- آه! تريدين التشاطر علي! لن يفيدك ذلك! هذا فنجاني! ليس لديك الحق في شرب قهوتي!...

العاهرة العجوز تتابع إيماءاتها:

- هيا يا سادتي يا حلوين! تعالوا...

- ماريادو لوريس معها حق عندما قالت أنك لصة! يوم التهاب الزائدة!

- اخرسي!

المجنونة في زاويتها ترقب المرأتين.

- قردتان!

فجأة تنط فوق أحد المقاعد وهي تطلق صراخاً هيستيرياً.

الخادمة، وهي ما تزال منهمكة في صد الحشد، تصرخ فجأة:

- افسحوا الطريق للسيدة!

زبون لا يطاوع.

- أين تعتقد نفسك؟ في قسم الشرطة؟ هل تعتقد نفسك شرطياً! انزل قائمتيك، هيه!

صاحبة النزل، سيدة طويلة القامة، ترتدي ثوباً أسود، تشبه حارسة السجن.

- الآنسات ذاهبات للغداء أيها السادة، بإمكانكم الانصراف. هيا خارجاً... اخرجوا!

لهجتها تصبح آمرة أكثر فأكثر.

- سنغلق! أطفئوا الأنوار!

الإغلاق يضع حداً للعرض الهيستيري.

البدينة ذات الوجه الوحشي تحك ساقها.

- ساقي تؤلمني! آي، آي!

المومسات تغادرن القاعة شيئاً فشيئاً. الخادمة تلملم أعقاب السجائر من الأرض وهي تدندن.

* * *

قاعة الانتظار في ماخور أرستقراطي، تزينها اللوحات الجدارية والمرايا والمرمر. زبونان ينتظران جالسين فوق مقعد منجد. الشاب يدخل القاعة يرافقه صديق ملتح. ينظر حواليه، ثم ينزع قبعته بشيء من الارتباك. صديقه يبتسم بفجور. الوقت ليس وقت الازدحام، الصمت يزيد من انطباع السهرة المأتمية الذي يسود جو القاعة. الرجل الملتحي يجلس ويدعو صديقه إلى الجلوس. عاملة الصندوق، امرأة غير متقدمة كثيراً في السن، ذات شعر فضي. تجلس أمام تمثال صغير من المرمر لفينوس وضع في قوقعة كبيرة مضاءة. الشاب ينظر إلى صديقه الذي يهزأ من حيائه. فتاة حسناء ترتدي سترة فضفاضة تزينها قطع ذهبية، تطل من خلف أحد الأعمدة، تغني بهدوء، تتحرش بالشابين بلطف.

- ما الشيء الممتع الذي تفعلانه؟!

الشابان يتبادلان النظر. الملتحي يكتم ضحكته. الفتاة تستدير نحو الصالة.

- ماذا ننتظر! هيا...

مومس بدينة عارية إلا من مشد وبعض ريش النعام تتقدم ببطء، تتوقف أمام الشابين وتتقدم بعرضها بمراءاة:

- بمقدوري أن أعمل لكما مئة وضعية في الدقيقة، مئة هل تسمعان؟

رومانية صغيرة ذات شعر طويل، تنزل بضع درجات وتدور في أرجاء الصالة بهيئة حازمة. تصفق بيديها، تربت فوق بطنها وتستحث الزبائن.

- ماذا جرى لكم هيه؟ آه! لا أحبكم هكذا! هذا لا يسر! هيا، هيا! من سيأتي للعب الشطرنج معي؟

الزبائن يَصِلون تباعاً. مجموعة من المومسات تخرجن من باب المصعد.

- كيف حالك؟ أنت لا تحبني في الصباح هيه؟

الفتيات تأخذن في الدوران في أرجاء الصالة. كلهن يتحركن، يجلسن، ينهضن، يعنفن الزبائن، بمختلف أنواع اللهجات العامية، هنالك الكثير من الضباط وأعضاء الميليشيا الفاشية.

فتاة تخرج من باب المصعد وهي تصرخ:

- كوكو، هاأنذا! وقتي ثمين! علي أن أعود إلى الأعلى فوراً.

فتاة عامرة صهباء ترتدي ثوباً براقاً، تسند بيدها ثديها الضخم العاري.

- ماذا يا أطفالي، هل نذهب؟ هيا، هيا! ما بكم أيها العاجزون، ألا تتحركون؟

فتاة أخرى تغني، وهي تنثني وتومئ بيديها:

- «كان هكذا، كان هكذا... كان يسمى...» وأنت ما اسمك؟ هل تأتي؟

العاهرة البدينة ذات ريش النعام لا تزال تنثر وعودها المعسولة.

- أنا ملتهبة! أنا ملتهبة!

- ألف ليلة وليلة في نصف ساعة!

الشابان في ذهول أمام رقص النساء الدائري هذا.

- ماذا يا أطفال! أين تعتقدون أنفسكم؟ نحن هنا في ماخور!

إسبانية تتبختر، نهداها عاريان تحت غلالة شفافة.

(هيا أيها الفتيان! هيا أيها السادة! تعالوا مع المدريدية، هيا!)

- ماذا هل تريدونها أم لا؟

- أنا الرعشة الكبيرة! هذا أنا! تأمرون! أطيع!... هيا!

الصديقان ما يزالان جالسين فوق المقعد، الشاب فوق شفتيه شبه ابتسامة، الملتحي يتطلع حوله متحيراً.

المومس البدينة بريش تصعد برفقة زبون، الفتاة الصهباء ذات الثوب البراق تهز مؤخرتها تحت أنف رجل عجوز.

ماذا؟ هل تسمرت في مكانك؟ إيه بابا انظر، ماذا في عيني!

رجل يصف المشهد لصديق أعمى لا يلبث أن ينفجر ضاحكاً.

فتات ترتدي زي البحارة تتوقف أما زبون. تضع يدها فوق كتفه وتحدق في عينيه وهي تحرك لسانها بإيقاع، فتاة من تورينو ذات وجه ممتلئ تحاول كسر حياء زبون شاب.

- من أنت؟ آه، سأجعلك تفقد عقلك! أنت رجلي! ألا تتحرك.

فتاة سمراء رائعة الجمال تدخل القاعة، وتلفت الأنظار. بعض الرجال يتهافتون نحوها مسحورين بعد أن تخلوا عن سواها من الفتيات الفتاة ترتدي ثوب جارية شرقية. ترمي نظرة واثقة حولها. الشاب بدوره يناله سحرها. الفتاة تتفحصه بنظرة خاطفة تجعله يغرق في الارتباك... لكنها لا تلبث أن تصعد برفقة ضابط.

مجموعة المعجبين تتزاحم أمام المصعد. قوادة بدينة تدعو الزبائن وهي تصفق بيديها.

- هيا أيها السادة! ألا تخجلون من ترك كل أولئك الحسناوات هنا! لو كنت مكانكم!

قوادة ترفع سماعة الهاتف الذي أخذ بالرنين.

- طيب ... نعم.

تذهب لإغلاق الباب السّحاب الذي يفصل قاعة الانتظار عن السلالم. امرأة تقف أمام الباب واضعة يديها على خصرها. باب الدخول إلى القاعة أغلق أيضاً. زبون يقترب.

- لكن علي الخروج الآن!

- لا لا يا بني! لن تتزحزح من هنا! لست مستعدة لفقدان عملي بسببك!

- لكنني مدعو على العشاء عند صهري!... لا بدَّ أنها شخصية مهمة صاحبة النزل، شعر مسرّح في جديلة تلتف فوق عنقها، ثوب ضيق، هيئة صارمة، تدخل القاعة.

- أيها السادة، أرجو أن تلزموا أماكنكم، وألا تغادروا قبل خمس دقائق.

الهيجان يخفت للحظة، الصمت يلف الزبائن، صاحبة النزل ترقب الصالة مستندة إلى الصندوق، الهاتف يرن من جديد، تلتقط السماعة.

- طيب... فهمت... نعم.

تلتفت نحو الفتيات وتصفق بيديها، تأمر:

- يا آنسات، اصعدن جميعاً إلى الأعلى!

المومسات تخرجن من خلال الباب السحاب. زبون يسأل:

- لكن ما الذي يجري؟ كاتشيني على الأقل؟ Cachini.

- إيه، ربما...

الشاب وصديقه يرقبان الفتيات وهن يبتعدن.

* * *

الشاب ينسل خلسة داخل القاعة المقفرة. قوادة تغفو فوق ديوان. صاحبة النزل تثرثر مع موظفة الصندوق. الشاب يقترب من مجموعة من المومسات

جالسات على ديوان. إحدى الفتيات تتناول غداءها المؤلف من الكابوتشينو والفطائر، فتاة أخرى تقلم أظافر قدميها.

- انظري الشاب الأسمر... إنه يريدك.

السمراء الحسناء تتحني، تنظر نحو الشاب وتتجه نحو المصعد. الفتيات الأخريات يتابعن ثرثرتهن. في المصعد، يبتسم الشاب. بخجل:

- مرحبا...

المرأة ترمقه، ثم ترد له الابتسامة.

الغرفة مفروشة بالدمقس الأحمر، الأثاث من خشب الجوز، التحف من طرز ليبيرتي. ستار كبير يحمل تأثيرت ميثولوجية يضفي على الغرفة نوعاً من الفخامة الخفية. دولوريس تنزل من السرير، وتختفي خلف حاجز مزين بالمرايا. الشاب يتأملها.

- أنت جميلة جداً، هل تعلمين...

الفتاة تضحك جون جواب.

- من أين أنت؟

- من سانتا ماريا لا برونا.

- أين تقع؟

- قرب بومبيه.

ينظر إلى صورة.

- هل هو ابنك؟

- نعم هذا ابني.

خلف الحاجز، الفتاة تغسل فمها. الشاب، ممدداً فوق السرير، يتابع طرح أسئلته:

هل مضى زمن طويل... وأنت...؟

الفتاة تخلع ثوب الحمام وترتدي ثوب الحريم.

- منذ سنتين.

- ... أنا متطفل... كيف حصل ذلك... لماذا؟

- ماذا تريدني أن أفعل... لقيت نفسي وحيدة، ثم، قالت لي أسونتينا: تعالي معنا، سترين، عملنا جيد، سأقدمك للجميع. ساعدني في تزرير ثوبي!

- نعم.

- والحقيقة أموري تسير على ما يرام هنا، المعلمة تحبني، ولا ينقصني شيء.

- إذن... أنت لا ترغبين في مغادرة هذا المكان؟

الفتاة أمام المرآة تصلح من وضع ثوبها وتجيب بدون مبالاة.

- وماذا سأفعل؟

- لكن... ألم يحدث لك أن وقعت في الحب، ألم يصدف أن التقيت إنساناً شعرت معه...

- طبعاً! وها أنت ترى النتيجة!

الشاب يرتدي ثيابه، يعقد ربطة عنقه وفي فمه لفافة.

- اسمعي... ألا يمكننا أن نلتقي في مكان ما؟ ألا تخرجين مطلقاً أنت؟

الفتاة تتأمله بشيء من التهكم. تصمت.

- صباحاً... متى شئت... بإمكاننا أن نتناول الغداء معاً... على الشاطئ... أنا لا أمزح... حقاً... أتمنى أن نلتقي؟ حددي موعداً؟... بعد غد؟...

المرأة تستدير نحو الشاب وتوافق مبتسمة.

* * *

عرض الأزياء

في القاعة الكبيرة لقصر أميري فخم، رجل بثياب الخدم الرسمية ينفض طبقة السميكة بمنفضة الريش. لوحتان ضخمتان تحمل كل منهما صورة كاردينال يرتدي البرفير (الرداء الأرجواني). عبر الإنارة الخافتة نميز قامة نحيلة.

- سالفاتوري! دومينيكو!

الأميرة العجوز تدخن بقلق وتوتر شديدين، تحت غلالة الوجه نلاحظ ماكياجها الكامل.

- ألا تسمعون صوت السيارة؟ لقد وصل!

موكب صغير يتقدم: الكاردينال وحاشيته، يتقدمهم خادمان عجوزان يحمل كل منهما شمعة مضاءة. الأميرة تهف لاستقبال الأسقف باسطة ذراعيها.

- شكراً يا صاحب النيافة! ألف شكر!

تركع أمامه لتلثم الخاتم.

- هيا انهضي! أنا سعيد جداً أن أكون بينكم.

أمام منصة الشرف، بعض الارستقراطيين ينحنون لتحية نيافته.

- مساء الخير! مساء الخير! آمل أن تكونوا جميعاً بخير.

راهبة إسبانية تتقدم بتزلف بالغ.

- آه الكاردينال هنا!!

- يا صاحب النيافة، نحن بانتظاركم منذ زمن طويل! يا للسعادة! منتّي وصلت، وكذلك الكونت نينيتو. هل تتذكرون ذلك اسم في فالكونار؟

النسوة يرتدين الأسود، ويتزينَّ بالجواهر والأكاليل. الرجال بثياب النبلاء البابوين، مخمل وقبة على الطريق الإسبانية.

- أنت فرانشيسكا؟ اليس كذلك؟

- نعم أنا فرانشيسكا يا صاحب النيافة.

- وهذا الملعون ألا يزال يعذب والدته؟

أرستقراطي بدين ذو بطن متدلية وشعر رمادي ينحني خجلاً.

- لكن لا... هذا غير معقول...

شاب أسمر يحيي مبتسماً.

- آه، هذا فيليبيتو! هل تذكر عندما كنت تسرق النبيذ بالزجاجات؟

أطفال بثياب مخملية برفقة مربياتهم الفرنسيات يتقدمون نحو الكاردينال.

- وهؤلاء الشياطين من يكونون؟ أبناء أوغوستاريلو؟ كيف حالك، أنت؟ إننا نعرف بعضنا، مناولتك تمت بيدي.

نعم.

- إنها ايسمير الدا يا صاحب النيافة. أنظروا كم كبرت. يد الكاردينال تداعب بعض الرؤوس.

- والأشقر الصغير... لم تسبق لي رؤيته، ما اسمك؟

- جيوليو.

- أنت عاقل أليس كذلك؟ عاقل وأنت نائم فقط هيه؟

الراهبة الإسبانية تضحك. الكاردينال، بإشارة من يده، يصرف الأطفال الذين ينحنون ويبتعدون مع مربياتهم.

- هيا، هيا إلى النوم! تصبحون على خير يا أطفال. فليباركم الرب!

- تصبحون على خير يا صاحب النيافة.

الأميرة تدعو الأسقف لأخذ مكانه على منصة الشرف.

هل تعلمين أيتها الأميرة، اليوم أيضاً زارنا أناس يريدون تلقين كيف ينبغي إدارة الكنيسة.

- هل تذكرون نيافتكم عندما كنتم تأتون إلى فيلا مانزيانا؟ كنا نقيم احتفال درب الآلام في الحديقة! يا للذكرى؟ في الليل، كل تلك الشموع الزاحفة... يا له من مشهد!

المدعون يأخذون أماكنهم وهم يثرثرون.

- قال لي لا [٤].

- لكن، اطلب ذلك من جدته[٤]....

- إننا نقدم كل ما بوسعنا... وبكل طيبة خاطر... لقد تلقينا نوعاً من الإهانة من جهة لا أستطيع ذكرها[٦].

- تعال من فضلك... أمي معكم يا سيد ألفونسو... الهرمية السلطوية لا يمكن لمسها في الوقت الحاضر[٦].

الأميرة مستسلمة كلياً لذكرياتها...

- وفي عيد الفصح؟ عندما كنا نجمع كل الخراف أمام الفيلا؟ مسكين بابا، كان يهمه حداً أن يرتدي الرعيان ثياب القرن التاسع عشر... مثل رعيان موطن المسيح (Lacréche).

- إيه، نعم أذكر. كان رجلاً طيباً دون أوجيينو!

- وكانوا يعطونني أصغر الخراف كي أنقذ حياته!

- كنت رائعة!

الأميرة تجلس الكاردينال الذي يلتفت نحو المدعوين.

- اجلسوا يا أصدقائي!

بعض الخدم ينتقلون بين المدعوين يقدمون لهم الأبيريتيف ومشروب النعنع على صوان فضية. المدعوون، وكلهم من الشخصيات البارزة يثرثرون.

- ينبغي أن تزورني، عندي الكثير من الأوراق، خراج، ضرائب، كمبيالات... أنا لا أفهم شيئاً. إذا كان علي أن أريه لابني، أنا متأكدة أن هذا سيطالبني بالنقود(٥)!

- بيبينو! جيرفاسيو! هيا... ماذا تفضلون نيافتكم.

- نعنع... كي أنعش فمي. شكراً!

الأميرة تقدم قدحاً من شرب النعنع للأسقف.

- آه، شراب النعنع! كنت واثقاً! وها هوذا!

خادم ينخني أمام ثلاث سيدات، يقدم لهن المشروب.

- يا له من أحمق طبيبي! لقد منعني عن الشرب والتدخين، لكنني لا أبالي. لأنه هكذا تداوي الغالينا وليس بالريبا مونتي كانديدا التييري(٥)!.

الكاردينال يروي للأميرة وقدحه في يده:

- أتعلمين أيتها الأميرة لقد كنت ولداً شقياً فعلاً عندما كنت صغيراً!

- أوه!

الأميرة تبتسم. الرجل الجالس بجانبها يسأل:

- ماذا قال؟

- قال أنه في صغره كان ولداً شقياً! هل تتصور!

الكاردينال يتابع:

- ماما كانت تحضر الليكور وتحتفظ به للمدعوين، طبعاً لم يكن لدي الحق في لمسه... الأميرة تضحك.

وأنا، أتدرين ماذا كنت أفعل عندما تخرج أمي؟... كنت أسرع نحو الزجاجة وأفرغها.

- أوه، يا صاحب النيافة! لا أصدق... لا بدَّ أنك كنت قديساً حتى في صغرك.

الكاردينال والأميرة يقرعان كأسهيما، ثم يرفع الكاردينال كأسه ويشرب نخباً على شرف المدعوين الذين يهللون له.

- تأكد من ولاء محبيك في كل أرجاء إسبانيا. يا صاحب النيافة[٦].

- عمر مديد لنيافتكم.

- كل الكنيسة الفرنسية تقدم لكم الولاء يا صاحب النيافة[٤].

الأميرة تغوص في مقعدها الواسع، رأسها محنية، عيناها حالمتان، تضيع في ذكريات عابرة.

- الزمن يمر بسرعة!... كل شيء يبدو بعيداً!... لشد ما يؤلمني أن أفارق الحياة في مدينة لم تعد مدينتي... لأن روما، مدينتي، كانت مختلفة تماماً. الناس كانوا طيبين، يبادلونك الاحترام... الجميع كانوا يعرفون بعضهم، مطارنة، كرادلة... البابا... كلهم كانوا أصدقاءنا، أهلنا... لكن تلك الصداقة الرائعة مع الكنيسة قد فقدت الآن... كنا نقيم أعياداً رائعة في الفيلات... مع كل أولئك الكرادلة بثيابهم الأرجوانية... وفي عيد الميلاد... من الغرابة أن أفكر بهذا الآن... هدايا مونسينيور التييري... تماثيل الشمع الصغيرة، الصلبان المصنوعة من القش المجدول... انتهى كل ذلك... من يدي إلى أين انتهت كل تماثيل الشمع تلك.

الأميرة تبكي، تخفي دموعها بيدها. لكنها تستجمع قواها في اللحظة التي يظهر فيها رجل بزي رسمي كامل ليعلن بدء العرض. بعد الترحيب بالكاردينال والمدعوين يهز الرجل جرساً صغيراً في يده.

راهبتان تجلسان أمام الأرغن، العرض سيجري على منصة واطئة على شكل نعل الفرس. ممثلو مختلف المراتب الكنائسية يحتلون أماكنهم في المدرجات المحيطة بالمنصة من جانبيها. بأمر من قيّم الموسيقى تبدأ الراهبتان بالعزف. الأميرة تترقب باهتمام بالغ.

شبح إنسان مغطى بما يشبه الكفن الرمادي يتقدم فوق المنصة بخطى قصيرة وفي يده شمعة مضاءة. إثر بلوغه مركز منصة العرض يستدير الشبح الغريب ويركع. مقدم البرنامج يعلن عن الموديل الأول:

- موديل رقم /١/: «الصدر من الساتان الأسود على الطراز الكلاسيكي لحديثي الترهبن. اثنتان من المترهبنات (حديثات الترهبن). ترتديان الموديل المصنوع من الساتان الأسود تتقدمان، يدان مضمومتان، رأس محنية. تتوقفان بمحاذاة منصة الشرف وتحييان الكاردينال.

الموديل ذاته يمكن أن ينفذ من الحرير أو الصوف حسب الفصل. الأحذية بالنسبة للطقس القاسي تصنع من الجلد الأسود أو الكحلي.

راهبتان تعرضان قبعات بيضاء ضخمة تشبه الأجنحة.

- موديل رقم /٢/: «الترغلّة الطاهرة» قبعة منشاة مجنحة هفهفافة، ضرورية في الأجواء الملوثة.

القبعات الضخمة المهتزة تبتعد.

- الموديل رقم /٣/: «أخوات إغراء المطهر الصغيرات».

الدور الآن لراهبتين عجوزتين في تنورة منتفخة من قماش البطائن الأسود القاسي، تتقدمان وهما ترقصان، تدوران وتلفان، تتحنيان وسط المنصة وتبتعدان في حركات رشيقة.

- بوبلين أسود، وشاح أبيض وثوب واسع مقصّف.

في المنصة، الراهبة الأسبانية تتمتم لجاراتها.

الموضة ينبغي أن تتبع الكنيسة وليس العكس[٤].

مقدم العرض، وعيناه مغلقتان، يبدو محلّقاً. يضع نظارته ويعلن الموديل التالي. خلفه، الراهبتان تواصلان عزفهما على الأرغن.

راهبة بدينة من راهبات البعثات التبشيرية، يداها مختبئتان في كمي ثوبها العريضين، تتقدم فوق منصة العرض، ترتدي معطفاً وحجاباً قصيراً. تنتني عند مرورها أمام الكاردينال.

- الموديل رقم /٤/: «خاص بالأخوات المبشرات، مجموعة مؤلفة من حجاب تروبيكال عملي جداً، ضد البقع، ولا يحتاج للكي «no iron».

على منصة الشرف، سيدة عجوز تعبر عن خيبة أملها.

- ويحاولون إقناعنا بأن هذا يتلاءم مع عصرنا؟ ونحن، عاقلين، مطيعين، علينا أن نعترف بين يدي راهب يرتدي ثياب مبيّض؟.

الارستقراطي ذو الكرش يحاول تهدئة والدته.

- ماما بالله عليك، اسكتي! قليلاً من الاحترام أرجوك! غداً سأعيدك إلى القرية! اعتقد أن لا شيء يعجبك، أنت هكذا من يوم ولادتك.

- أنت الذي ستسكت! يا كافر! ذهبت إلى بلجيكا لتنطلق، أنت! قلّل من اللعب وأكثر من الصلاة... وتناول من وقت لآخر!

شاب يجلس بجانب السيدة العجوز المتسلطة يهمس:

- أرجوك يا جدتي[٤]!.

- نتقل إلى الموديلات الرياضية: «في الجنة دوماً أسرع»[٤]!.

راهبان يرتديان الأحمر، في قدميهما أحذية تزلج ذات دواليب، يندفعان فوق منصة العرض، كل منهما يمسك بيد الآخر ينحنيان باحترام بالغ أمام الكاردينال، مقدم البرنامج، بإعجاب شديد، يتأملها وهما يبتعدان بحركات راقصة؟

- نعلم جميعاً أن العقل السليم في الجسم السليم... وأن الرياضة تولد بهجة مشروعة - Servire Dominum in Laetiria.

الجميع يصفقون، يظهر راهبان يركبان دراجتين ويسيران جنباً إلى جنب.

- من أجل رهبان الريف، إليكم الموديل رقم /٦/: تم استبدال الجبة بسروال فضفاض يترك للجسم حريته المطلقة.

يدخل ثلاثة أطفال الكورال: يتقدمون لتحية الكاردينال وهم يهزون مباخرهم بطريقة احتفالية.

تنويعات لقداس من الدرجة الأولى... حتى تزيينات القساوسة نالها بعض التطوير، المنصفة، الغفارة، الدرع والحلة تصنع اليوم من مواد خفيفة إلى أبعد الحدود، وبألوان زاهية جداً... وأصباغ مكفولة.

الشبح الملتف بالكفن الرمادي، الذي كان لا يزال جاثياً بسكون في مركز منصة العرض ينزل ويبتعد وهو لا يزال يحمل شمعته المضاءة.

يدخل اثنان من الكرادلة. أحدهما يرتدي ثوباً طويلاً أحمر اللون موشًّى بفرو القاقم، بينما يضع الثاني دثاراً ذا قبعة من المخمل الأخضر الفحم بحاشية من الفرو الثمين.

في منصة الشرف يحتفظ الكاردينال بوجهه الغامض خلف نظارته السوداء، وهو يرخي يديه فوق ثوبه، وينحني قليلاً نحو الأمام.

الموديلات التالية، أثواب احتفالات طقسية فخمة صنعت من المخمل الموشى أو المزين بنقود معدنية، مرصعة بقطع زجاجية صغيرة، تتالى في العرض أشبه بأغلفة فارغة كئيبة تعلوها تيجان أسقفية عالية، كاهنان يختمان العرض، يعرضان حلتي قداس غريبتين، إحداهما تشبه زجاجة ملونة، والأخرى تبرق بأنوار مصابيح صغيرة تومض مثل نيونات لونا بارك (حديقة القمر).

منصة الشرف غارقة في الظلام، وحدها كرسي الكاردينال مضاءة بحزمة ضوئية شديدة. تحت وابل من تويجات الورود، في غيمة كثيفة من البخور تتقدم امرأة مغطاة تماماً بالمناديل والتول، بخطوات قصيرة باسطة ذراعيها. تحت الغلالة نميز وجهاً كوجه الأموات بمحجرين مقعرين.

مذخران ضخمان من الكريستال يهبطان فوق المنصة معلقين في الهواء. الأول يحمل يداً كبيرة مفضضة، الثاني عينان.

الآن نحن أمام موكب ضخم من الكرادلة والكهنة في زحمة من التزيينات الكهنوتية يتصاعد بريقها شيئاً فشيئاً. بعض الكهنة، ضخام الجثة، بهياكل آشبه بالمومياء، آخرون قصار **القامة**، ممتلؤون، يبعثون على السخرية في ثيابهم التبجيلية.

الموسيقا تغدو احتفالية فخمة. يخال المرء أنه في احتفال طقسي مهيب يجري في كاتدرائية القديس بيير. عبر وابل من المناديل السوداء المرفرفة في جو القاعة تظهر عربة تحمل أشباح هياكل عظمية باسطة أيديها نحو السماء وتنفخ في آلات الترومبيت.

رهبان ينهضون في إحدى المدرجات، يتبعهم مدعوون آخرون. على الأرغن، الراهبتان تعزفان بحماس متصاعد.

في صدر الصالون تفتح ستارة، الحضور، مأخوذين، يركعون. الكاردينال واقف بخشوع. الأميرة تهتف بتأثر شديد.

- ها هو ذا! لقد عاد! ها هو بيننا من جديد! إنه بابانا! بوذا المقدس!

محاطاً بكل التبجيل البابوي، يظهر شخص فوق منصة عالية جداً، جالساً فوق محفة، على جانبها يقف فتيان الخدمة الكهنوتية يروّحون ببطء بمراوح ضخمة من الريش.

بعض الأرستقراطيين يرتعدون من فرط التأثر، يتمتمون بصوت مخنوق:

مونسينيور! مونسينيور! يا إلهي مونسينيور!

- آه!

- قديس! قديس!

في جو من التأثر العام، امرأة عجوز تتمتم باكية:

- لا تتخلوا عنا بعد الآن! لا تتخلوا عنا!

- عودوا! عودوا إلينا!

على المدرجات، وفي المنصة، الحضور يبسطون أيديهم نحو ذلك التجلي القدسي.

* * *

تراستيفيري

يُسمع صوت فيلليني.

- واحد، اثنان، ثلاثة، هيا!

أحدهم يدندن « مجتمع اللوطيين »، مطلع أغنية رومانية شعبية.

في شارع تراستيفيري، شعار ضوئي كتب عليه: «فيستادي نونتيري»، ازدحام شديد للسيارات، بائعو خبز الأبازير وغزل البنات والملبّس يملؤون الأرصفة. بعض الهيبيين يرقدون فوق درجات ساحة تريلوسا. بائعا بالونات يجتازان الساحة حاملين باقات ضخمة من البالونات متعددة الألوان.

- وصل بائع البالونات! لدينا من كل الألوان! بالونات! بالونات!

لبلوغ ساحة سانتا - ماريا - ان - تراستيفيري ينبغي اجتياز عدة حارات ضيقة مكتظة. طاولات المطاعم صُفت على الأرصفة بحيث جاورت بضاعة بائعي الفصول الأربعة. سلال الفواكه، البطيخ، زجاجات نبيذ مضاءة بالشموع.

السيارات مُنعت من المرور في ساحة سانتا-ماريا - ان - تراستيفيري التي اكتظت بحشد خليط من الناس الضاجين بالحيوية. جماعة من الهيبيين قرب النوافير تغني وهي تتمايل مع الإيقاع. فتاة سمراء تقطع الساحة وتلحق الجماعة. عناقيد البالونات تشكل بقعاً متلونة ومتنقلة.

- بالونات! بالونات! للصغار والكبار!

في إحدى الحارات الضيقة، عدد من الزعران يكمنون مترصدين. بعيون زائغة يترقبون اقتراب الكاميرا ثم يهتفون بلهجة عدوانية:

- عم يبحث هؤلاء هنا؟

- إنهم يصنعون سينما في كل مكان، لكن العملة، نحن لا نرى لونها أبداً!

بائع البطيخ، دون اكتراث، يتزلف:

- إنها حمراء! حمراء جداً! تعال رطّب فمك! تأكل وتشرب ومن ثم تغسل بها! انظروا كم هي حمراء! خمسون لير الحزّة!

بعض العجائز جالسات في الظل، يثرثرن. بائع البورشتيا (قطعة مئوية من صغار الخنازير) ينادي الزبائن.

- إنها من أرّيتشيا Arriccia! بضاعتي من أريتشيا! تذوقوها!

سياح من مختلف الجنسيات والألوان يروحون ويجيئون في الحارات، فيلليني وفريقه يقتربون من بائع البورشيتا. المصور يلتفت نحو فتاة السكريبت.

- ليس لديكم من هذا في ألمانيا، بريتا!

فتاة صغيرة بقميص ذهبي اللون تلتهم قطعة البورشيتا مع شطيرة خبز.

- إنها من أريتشيا يا خنزيرتي! من أفضل الأنواع!

البائع يسنّ سكاكينه.

في فناء قصر قديم، بعض النسوة البدينات يثرثرن وهن جالسات في دائرة.

- كنت راجعة بعد يوم عمل طويل، وأسمع من يقول: «هذه المرأة تعود إلى بيتها. تقع مريضة، وتموت». أنا أجبت «آه لا لن يتم ذلك على هذا النحو».

فتاتان بثياب السهرة تنزلان سلماً برفقة عجوز متصاب (بلي بوي) أبيض الشعر.

- ماذا يخرّف! أنا من برج القوس، وكوكبي الزهرة! يا له من وسيط ومنجم! إنه أحمق ليس إلا!

- بطيخ أحمر، بطيخ أصفر! حلو كالسكر!

يمر رجل أعمى:

- شاب أعمى سيداتي سادتي! أشفقوا على شاب أعمى!

على ناصية الشارع تنتصب خيمة مضاءة: داخلها ترى أيقونة للعذراء وسبعة سيوف تخترق قلبها، من النوافذ المشرعة تصل صيحات.

- دع الجدة بسلام! اتركها تنام! لماذا تريد اقتيادها؟

- توركاتو! العطورات!

عربات تحاول شق طريقها وسط الزحام، سيارات أمريكية ضخمة مليئة بسياح يتضاحكون. ناقلة صغيرة تحمل عائلة كاملة تتقدم ببطء في زقاق مزدحم ببضاعة بائع منوعات.

- لوحات أثرية براويز تاريخية! بالرخصة!

رومانية ممتلئة الجسم تتحدث مع جاراتها الجالسة في الجانب الآخر من الشارع.

- عائلتنا أناس متدينون، زوج أختي مساعد رئيس أطباء المنزل البابوي! عالج كومة من الأساقفة! كان يضع البدلة أيضاً!

رومانية أخرى، وقد ثنت رأسها تنظر نحو الأعلى، تتحدث مع امرأة تتحني من نافذتها.

- ... كانت جنازة رائعة حقاً! أربعة أكاليل!... كان في ريعان شبابه، المسكين! لكن ماذا تريدين، اليوم صحة جيدة وغداً في القبر... سأعود إلى المقبرة غداً... هل تريدين مرافقتي؟ لقد اعتنوا به جيداً أتعرفين؟

يمر شابان برفقة فنانين.

- لقد كتب لي رسالة رائعة من السجن، جعلتني أبكي[٣].

- لم يعد يهتم لشيء... يا للعيب... الآن، يريد الذهاب إلى إسطنبول. سمعت أنها رائعة. صديق قال له إن المعيشة رخيصة هناك. لقد نهبوها عن بكرة أبيها... ماذا ننتظر! كنت أتمنى الذهاب معه لكنهم سلبوني جواز سفري مع كل الأشياء الأخرى[٣]!.

فتاة سمراء غريبة المظهر، بثوب من نسيج لامع، وشعر مضفر تتأمل وجهها في مرآة، ثم تلتفت وتنادي كلبين ضخمين:

- جيسي! رين! هنا!

رجل أمام مطعمه يستجوب المارة بتلك اللهجة التهجمية التي لا يتوانى بعض أصحاب كباريهات التراستيفيري عن استخدامها.

- ماذا تفعلون هنا أيها النيام؟ ألا تأتون لتناول الطعام عندي؟ هيه أنت أيها الصغير، أين تذهب مع قطعة النقانق الضخمة هذه؟ آه، إنها زوجتك؟ إذن تعالا هنا... أطعمها بشكل لائق ولو لمرة واحدة إذا دخلتم فهذا خير لكم، إذا لم تدخلوا فهذا خير لي!

ثلاثة موسيقيين جوالين يدخلون المطعم وهم يغنون. زبون يشير إليهم.

- تعالوا للعزف هنا! سنقدم لكم شراباً!

فريق فيلليني يدنو من طاولة يجلس إليها مارشيللو ماستروياني برفقة عدد من الفتيات. عامل الإضاءة يضيء أحد البروجكتورات، المصور يحيي الممثل وهو يجهز آلة التصوير.

- كيف حال سيد ماستروياني! اللحية تلائمك تماماً!

- كفاك أنت وآلتك! ابتعد: ألا ترى أننا بين...

فتاة السكريبت، الميكروفون بيدها، تقترب.

- مساء الخير، عذراً سيد ماستروياني، أنت الروماني، هل يمكن أن تقول لنا لماذا تحب روما؟

- مساء الخير... لكن لا... لا أدري... ولماذا تريدينني أن أجيبك؟

- من أجل فيلمنا.

- وأي فيلم؟

الفتاة تستدير نحو فيلليني في اللحظة التي ينتبه ماستروياني لوجوده، يهز رأسه مبتسماً ومذعناً في نفس الوقت.

- أوه، فيديري! لم أعد أجد شيئاً. -

- هذا مؤسف... لا بأس مرة أخرى...

- تشاو... مرة أخرى... تشاو!

الفريق يحيي الممثل. المصور يصيح به مبتعداً:

- مساء الخير... بلغ سلامي لأخيك! كنا معاً عند الراهبات عندما كنا أطفالاً!

ماستروياني ينهض ويدعو فتاة السكربيت إلى طاولته.

- اسمعي... دعك من الفيلم... تعالي معنا... من أين أنت؟ يقبل الفتاة على خدها، تبتسم.

- لكن... عندي عمل! نستدير نحو فيلليني: هل تسمح لي؟

* * *

داخل قاعة المطعم، عدد من الشبان اليسوعيين يستعدون لشرب نخب، الأقداح في أيديهم:

- هذا المطعم هو المكان المثالي للاحتفال بمجالسنا، لكنه بالتأكيد ليس بالمكان الملائم للحديث عن الثورة.

كل الجالسين حول الطاولة يصفقون.

* * *

بعض الهيبيين يستلقون على الأرض أمام نار صغيرة. آخرون وقوفاً يستندون إلى جدار.

امرأة شقراء بدينة تحتج على إحدى الطاولات:

- شيكو! رائحة كريهة تنبعث من هنا! لا أدري كيف خطر لك أن تضعنا على هذه الطاولة!

- There are these came under the Pincio I think you can never sleep there ! Itooth Connie there the other night.

- Hey, Lucy, you , ll see. It will start in a minute Look Into Ny Eyes.

امرأة شقراء بدينة تحتج على إحدى الطاولات:

شيكو! رائحة كريهة تنبعث من هنا! لا أدري كيف خطر لك أن تضعنا على هذه الطاولة!

- أنا هنا، لن أتخلى عنكم! لكنك تخطئين بالنسبة للرائحة: إنها العفونة التاريخية، رائحة القرون المتتالية!

* * *

في زقاق ضيق، رجلان يتبادلان السباب، يفصل بينهما أصدقاؤهما الذين يحولون بينهما وبين الضرب.

- سأفتح لك بطنك أيها الحقير!

- تصدق كل ما يقال لك! ثم تأتيني بحماقاتك!

- آه، وكأن ما سمعته ليس صحيحاً. هيه؟ حقير! حماي كان هناك!

زوجان من السياج يتوقفان، الرجل يبدو متأهباً للتدخل.

- ماذا تريد أنت؟ لا دخل لك، هيا تابع سيرك!

السائحان يبتعدان... امرأة تجتاز الشارع وفي يدها مقلاة يتصاعد منها الدخان.

- هيا... ليقتل بعضكما بعضاً وخلصونا! أريحونا ولننته! كل ليلة نفس المشهد!

- لا تحشري نفسك في هذا أنت!

الخصمان يقفان الآن وجهاً لوجه، يتبادلان النظرات، والأصدقاء يمسكون بهما.

- سأنتزع عينيك!

- تافه مسكين!

- هيا، تعال! ألا يكفي هذا؟

رجل يخرج إلى عتبة بابه ويأخذ في التعليق على «المشادة» بسخرية.

- دعوهما! لا تمسكوهما! أقسم أنهما لن يتضاربا حتى ولو دفعتم لهما ثمن ذلك!

بائع البوركيتا والسياح يمرون دون اكتراث.

- بوركيتا بوركيتا تذوقوا هذه البوركيتا! زبدة خالصة! لا تبذروا نقودكم في المطاعم! تعالوا عندي! هذا أفضل لصحتكم!

رجل يستند إلى دعامة الباب، يلتهم صحن معجنات. العائلة متحلقة حول المائدة داخل البيت.

* * *

رجل بدين يضع صحناً كبيراً مملوءاً بالمعجنات أمام عجوز هزيلة جالسة.

- ذوقي هذا يا جدتي! لقمة صغيرة لك أيضاً.

نسمع مطلع أغنية وسط الحشد:

سبع قطع طيبة المذاق:

التين، الإجاص والبطيخ الأصفر،

عينا جدي مقلي،

ثقب مؤخرة صبي صغير،

القطة المدمّاة،

وجبنة الماكاريز.

* * *

في مطعم فخم على ساحة سانتا - ماريا - ان - تراستيفيري، رجل من رتبة عالية في البوليس، ربما كان مدير الشرطة، يتكلم أمام الميكروفون:

- إذا سمحتم، أود أن أوضح ما يلي: بالرغم من التشريعات الأخيرة التي تعتبر متسامحة إلى درجة غير معقولة، بل وتحمي المعتدي أكثر من المعتدى عليه...

عازف غيتار يدنو م طاولة مدير الشرطة ويهدي أغنية إلى سيدة عجوز متأنقة.

... الإجراءات الزجرية التي تقوم بها شرطتنا تنجح في الحفاظ على النظام في حدود المعقول...

باص للقوات الخاصة ينفذ إلى الساحة بسرعة عالية. ويسمع صرير عجلاته وهو يتوقف.

- ... خمائر الانحراف في مدينة أو حتى في مجتمع حيث حركات الاحتجاج، المخدرات، الرغبة الجامحة في الإثراء...

هيبييون يجلسون أمام النافورة.

- ... تعتبر بمثابة تطلعات مشروعة، صح أم لا؟

جماعة من شرطة القوات الخاصة بأقنعتها وخوذاتها وعصيها تتقدم نحو الشبان.

- تفرقوا! تفرقوا!... اخلوا الساحة!

- لماذا؟ هل نزعج أحداً هنا؟

رجال القوات الخاصة يقودون الهيبيين إلى الباص، في حين يبحث هؤلاء عن تفادي العصي ويهربون في كل الاتجاهات.

بعض زبائن المطعم المشهد دون التوقف عن الطعام.

فتى يقاوم شرطياً.

- دعني! اتركني، وغد! دعني!

مدير الشرطة. على طاولته، يتابع برصانة:

- نحن الآن نتساءل، ما هي العناصر القادرة على كبح جماح... كيف أسميها؟... تنامي الجريمة؟

امرأة قلقة تسأل:

- ماذا يجري؟ ألا يوجد خَطَرٌ في بقائنا هنا؟

مجموعة من القوات الخاصة تحيط برجل عجوز، وتنهال عليه ضرباً بالعصي.

- هؤلاء الفتيان لم يزعجوا أحداً. ليس لديكم الحق في ضربهم هكذا! أنا شاهد! أنتم حقاً مجانين! أنا أستاذ! أنا بروفسور!

- تفرقوا! تفرقوا!

مدير الشرطة يختم خطابه.

- ... لكن، لنكن واقعيين، لقد حولوا ساحاتنا الجميلة إلى مقالب للقمامة.

يتوجه بالكلام إلى جارته.

- لا يا سيدتي، إنه شاب من المنحرفين والأفاقين، لا يفكر إلا بالجنس! لا تخشي شيئاً، نحن لا نؤذيهم كثيراً!

وسط الزبائن نميز البيرترسودي. ينهض ويتطلع، وهو ينفجر ضاحكاً، إلى الملاحقة الهمجية التي تدور في الساحة.

- ماذا يفبركون هناك؟ هل يتقاتلون أم ماذا؟

شاب أعمى تقوده امرأة، يتوقف أمام الممثل.

- سيد سوردي! للأعمى المسكين... أنت المعروف بطيبتك... شيئاً ما... قدر ما تريد...

- ابتعد قليلاً! دعني أرى! لا أحمل فراطة! ابتعد يا أعمى! دعني أنظر! هيا!... يضحك.

رجال الشرطة، في مجموعات من عنصرين، ينهالون على بعض الهيبيين ممن لا يزالون في الساحة.

أسرة تجلس إلى طاولة، تحتفل بالتناول الأول لفتاة صغيرة ترتدي ملابس بيضاء. أحد الضيوف، وقد تعرف على سوردي، ينهض.

- سأطلب منه توقيعاً من أجل الصغيرة.

- اذهب، اذهب! إنه يجعلني أختنق من الضحك.

الرجل يمد دفتراً صغيراً إلى الممثل.

- من أجل ابنة أختي! لو تعلمون كم هي موهوبة بالغناء! إنها تحفظ كل الأغاني الرومانية! هيا اسمعي السيد سوردي!...

الفتات الصغيرة تأخذ في الغناء.

- هل تسمعون؟ تخال أنها «ميلفا» أليس كذلك! لها مستقبل هذه الصغيرة...

سوردي يعيد الدفتر بعد أن وقعه ويصرف الرجل والفتاة.

- برافو! برافو! خذها إلى الداخل كي تغني! الجو رطب هنا، ستخرب صوتها! هيا، إلى الداخل!

سوردي يلتفت إلى جاره.

- ... ولكن لا يا سيدي، ماذا تقول!

- ... طبعاً، طبعاً...

لا، أنت الأكثر شعبية! ويضيف سوردي ملتفتاً نحو فيلليني: ... أنه موظف الضرائب، فاهم... إنك تثير بلبلة لا حدود لها، فيديركو!. نعم، نعم، أعلم أنك تصور فيلماً عن روما... لكن أتدري، هذه المرة سأجعلهم يصادرون رخصة إقامتك!

طفل يطل من بين نباتات الزينة في المطعم. يتأمل سوردي بإعجاب شديد.

- هل سيعتقلونك أنت أيضاً يا سوردي؟

فريق فيلليني يقترب من طاولة يجلس إليها الكاتب الأميركي، غورفيدال وأصدقاؤه.

- ألا يضيركم أن نزعجكم دقيقتين؟

بطلب من فتاة السكريبت يبين الكاتب لماذا اختار العيش في روما.

- ... ما أحبه أكثر من كل شيء لدى الرومانيين هو أنهم يدعونك بسلام. ثم إننا نقترب من نهاية العالم، هنالك الكثير من السيارات... كثير من الناس... هنا، المكان المثالي لانتظار نهاية التلوث والتزايد السكاني... هذه المدينة التي ماتت مرات ومرات وكانت تبعث من جديد...

* * *

حول حلبة أقيمت وسط ساحة صغيرة. جمهور غفير يشاهد مباراة ملاكمة. المشاهدون يحرضون المتلاكمين.

- ما بك، هل تنام واقفاً؟

- هل أنتما مخطوبان أم ماذا! تانغو!

الجمهور ينفجر ضاحكاً.

سائحة متحمسة بثوب السهرة تختلط بجمهور المتفرجين، أخرى ترتدي الأحمر، تكشر عن أسنانها بهيئة سادية.

- اقتله! اقتله[٣]!.

أحد الملاكمين يقع على الأرض، يحاول النهوض دون نتيجة.

- أوت Out!

المنتصر يقفز في أرجاء الحلبة، قفازاه نحو الأعلى. مدربه يطرح منشفة فوق كتفيه. المشجعون يقتحمون الحلبة ويحملون المنتصر مهللين. وسط صراخ وتصفير وزعيق الجمهور، رجل ساخط يحتج:

- أنت لاعب رديء، لقد ربحت بفضل الحظ!

أحد أنصار الملاكم يجيبه بحنق:

- إنه بطل، إنه بطل!

- أغلق فمك! إنه سيئ، أنا بإمكاني أن أغلبكما معاً أنت وهو! وسط الفوضى الشاملة، فقد المصور آلة التصوير.

- الكاميرا! لقد سرقوا الكاميرا مني!

- سرقت الكاميرا منا!

* * *

آخر الساهرين يأوون إلى بيوتهم؟ هيبي شاب يتنزه وهو يعزف على الناي. بعض الزبائن الذين لزموا طاولاتهم، يصغون إلى الموسيقيين المتعبين. ساحة سانتا - ماريا - ان - تراستيفيري مقفرة. امرأة تسير في زقاق ضيق، تقترب من منزل جميل، إنها آنّا مانياني.

- آنّا! آنّا!... هل تريدين أن تقولي شيئاً عن روما أنت أيضاً؟ فأنت رمز.

- أنا ماذا؟

- الذئبة والفستالية Louve et Vestale.

- ماذا؟

- لماذا تشبهين هذه المدينة؟

- أوه، فيديري! «أي روح... اذهب للنوم ضربة تخلع رقبتك»

- اسمعي...

- آه، أنا حذرة «أنتي بتخوّف»... تشاو! تصبح على خير!

آنّا مانياني تتوارى خلف البوابة.

* * *

حارة ضيقة مقفرة... بعض المصابيح لا تزال مضاءة... أكوام من القمامة... على الحائط إعلانات انتخابية، وجوه متغضنة عابسة، نظرات زائفة... فوق جسر غاريبالدي تظهر مصابيح أكثر من خمسين دراجة نارية تسير هادرة متوعدة. فوق كل منها شاب وفتاة... عبر رصيف نهر التيبر، يتجهون نحو مركز المدينة... يطوفون حول ساحة نافونا... حول ساحة إسبانيا... حول نوافير الباركاشيا... حول ساحة البابا... مصابيح الدراجات النارية تضيء أعالي واجهة الكابيتول، أعمدة معبد ساتورن.

قافلة الدراجات، بأضوائها المتألقة، تغيب في عتمة الليل.

هوامش القسم الثاني

١- بترو بادوغليو P. BADOGLIO مارشال إيطالي (١٨٧١-١٩٥٦)، حاكم ليبيا (١٩٢٩)، نائب ملك أثيوبيا (١٩٣٨)، رئيس وزراء أثر سقوط موسوليني - وقع استسلام إيطاليا (١٩٤٣).

٢- باللاتينية في النص الأصلي.

٣- بالإنجليزية في النص الأصلي.

٤- بالفرنسية في النص الأصلي.

٥- بالفرنسية والإيطالية في النص الأصلي.

٦- بالإسبانية في النص الأصلي.

- المترجم -







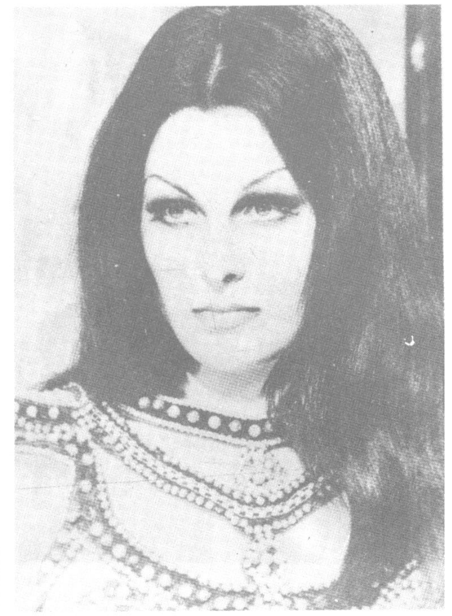
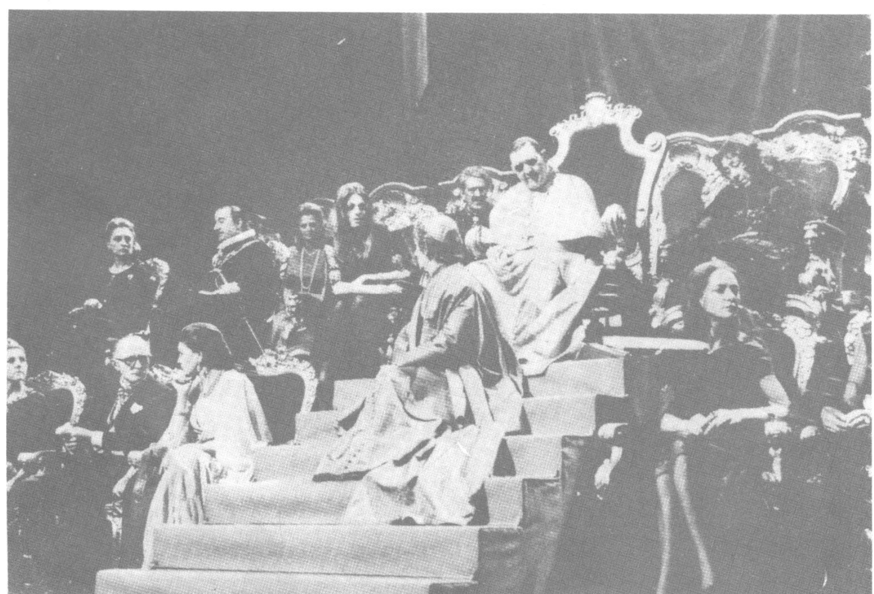

VOTA




PASSAPORTI
MILIONI DEL
LA LOTTERIA
DI TRIPOLI
POMO









فهرس

الصفحة

الطبعة الثانية / ٢٠١٩م

كلمة الغلاف

« روما عبر موشور رؤية فيلليني الذي يعيد تشكيلها... متناثرة، مشوهة. هذه المدينة التي يحب ويخشى، التي يحترم ويسخّف، المدينة التي تسحره وتكتم أنفاسه. روما الهاربة، حاضرة العالم المعاصر، وعاصمة البابوية، تهب نفسها جسداً وروحاً لفيلليني، تنقاد لعبقريته ونزعاته، لشراسته وعظمته، تتجلى وتتشوه...

إثر مشاهدة هذا الفيلم الباروكي العاصف، المبعثر والمتماسك، المبني بمهارة فائقة، هذا الفيلم الذي لا يمكن مقارنته بأي فيلم آخر؛ إذ يبدو مصنوعاً من نسيج مختلف، من معدن مختلف، كيف لنا أن ننكر أن فيديريكو فيلليني، من بين جمهرة السينمائيين البارعين، يظل أحد النادرين الذين يستحقون بحق اسم المبدع ».